الضحايا

أقاصيص متفرقات من أحداث تاريخية

حبيب جاماتي

الكتاب: الضحايا.. أقاصيص متفرقات من أحداث تاريخية

الكاتب: حبيب جاماتي

الطبعة: ٢٠٢٠

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة
جمهورية مصر العربية
هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥
فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣
E-mail: news@apatop.comhttp://www.apatop.com

دار الكتب المصرية
فهرسة أثناء النشر

جاماتي ، حبيب
الضحايا.. أقاصيص متفرقات من أحداث تاريخية / حبيب جاماتي
– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.
٢٢٨ ص، ١٨*٢١ سم.
الترقيم الدولى: ٨ – ١٩ – ٦٨٢٣– ٩٧٧– ٩٧٨
أ – العنوان رقم الإيداع : ٩٤٩١ / ٢٠٢٠

الضحايا
أقاصيص متفرقات من أحداث تاريخية

وكالة الصحافة العربية
«ناشرون»

إهداء الكتاب

وقعت حوادث الأقصوصة الأولى من هذه الحلقة في أثناء الثورة المصرية سنة ١٩١٩ فإلى أرواح الشهداء، الذين حصدهم الرصاص ومزقتهم الرماح، فضحوا بحياتهم في سبيل مصر، وماتوا لكي تحيا..أقدم كتاب "الضحايا".

تصدير

"الضحايا": أقاصيص نقلت عن متفرقات من الأنباء التاريخية، فصلت تفصيلًا موجزًا، وافيًا بأداء الغرض المرمي إليه بكل منها، ومهد لها بما تشاؤه سعة الإطلاع من الملابسات الزمانية والمكانية، واستخلص في سياقها ما شاءت المغازي المقصودة بها من محاسن الفضائل أو مساوئ الرذائل.

جرى فيها مؤلفها الأديب الألمعي "الأستاذ حبيب جاماتي" مجرى خاصًا، توسط فيه بين منحى العرب ومنحى الفرنجة. فأما العرب فقد آثروا بحكم طباعهم سوق كل نبأ على التجريد، لا يعدون لباب الخبر، ولا يتناولون من صفة الأشخاص سوى ما يعلق لزامًا بذلك اللباب. فعلوا ذلك بإجادة إنشائية لا تضارع، وإيجاز في السرد يكاد يكون غاية في الإيجاز، ولم يقدروا للمُطالِع حاجة إلى الوقوف على غير الجوهر أو صبرًا على تبسط، وإن كثرت فوائده، يعوقه عن بلوغ القصد من أقرب سبيل.

وأما الفرنجة فقد صنعوا من الأقصوصة مصغرًا للقصة، فهم يصفون فيها بالكلمة العاجلة ما يهيئ للقارئ الزمان والمكان، ويبينون بالعبارة السريعة مقومات كل شخص وميزانه، ويكدون الذهن في تصوير النوازع النفسية، والخلجات الوجدانية، ويدخلون الحوار، وإن لم ينفصح المدى إلا لأقله، ليقذف في روعك أنك بمشهد ومسمع ممن تقرأ سيرتهم.

غير أن صاحب هذا الكتاب قد اختار –وله في اختياره حكمة– أن

يجعل أقاصيصه، في الصفحات القلائل التي خصها بكل منها، ملائمة للحالة النفسية الشائعة بين أبناء مصر، بل بين أبناء الشرق العربي قاطبة، فانتقى من الأنباء المشهودة أو المنقولة عن التاريخ ما فيه مظنة عبرة لهم، وساق حديثه مساقًا سهلًا سلسًا شائقًا، يهز المشاعر هزًا عنيفًا قد يصل إلى أغوارها، ويغذيالعقول بألوان من الطرائف لم تكن لولاها بقريبة المنال منها. لا يريد بالخبر الذي يحكيه لك الخبر بذاته، بل بكل ما يحيط به من صور وذكريات وأمور لها خطرها وموقعها المتمم للغرض المقصود منه. ولا يتوخى من اللغة التي يكتبها إلا أن تكون صافية قريبة إلى المتداول، حتى لا يبعد على أحد تناول أدق المعاني الواردة فيها. وقد تفادى الإملال بجعله الأساليب متنوعة رشيقة، واحتال كل حيلة دقيقة في البيان؛ لتشتغل أذهان متصفحيها بالموضوع عن الوسيلة التي اتخذها لأدائه، فيبلغ منها مبلغه غير منقوص من جانب القوة والروعة.

هذا وكأنني بالكاتب الفاضل حين جعل لفظة "الضحايا" عنوانًا لهذه المجموعة الأولى من الأقاصيص، قد أشار بلطف إلى إزماعه التوفر على وضع الكثير منها، وإلى التأليف بين المتجانسات في خواتيمها الفاجعة، أو المتشاكلات في الأغراض العامة الأخرى، التي تنتظم كل طائفة منها لتكون كل مجموعة منها حلقة من سلسلة واسعة. وقد أحسن بما نوى وإنا لنتمنى له التوفيق إلى إهداء طرف زاكية العداد من هذا النوع الأدبي الجديد إلى الناطقين بالضاد.

أما الأقاصيص التي تسنى لى تصفحها من هذه الحلقة، فكل منها مجال جرى فيه ابتكار واضعها الأديب إلى أبعد الغايات المطلوبة في أمثالها.

خذ مثلًا الأولى منها، وهي التي وسمت باسم "البطل المجهول"، تجد

أحدوثة صغيرة شائقة في إطار لخصت به القضية المصرية أروع تلخيص. اشتمل على لباب القضية، وعلى الأصول التي لا تمتري للحق فيها، وعلى وثبة الأمة وبذلها النفوس والنفائس في سبيلها، لا يختلف في ذلك الأصاغر عن الأكابر، وعلى موجز ما نطقت به ألسنة الفصحاء وجرت به أقلام البلغاء، من تظلم واستصراخ وبث وحث، بما تأخذك تلقاءه هزة الذكرى لما تضمنته تلك الكلمات القلائل والعبارات المقتضبة البعيدة الدلائل من صور الوقائع الكبيرة والحوادث الجلائل.

فاظنن بما يكون في النفس موقع الحكاية، التي لا تصنع فيها ولا تركيب ولا تزويق بياني، فهي تحصل لصبي كاسب لوالديه المقعدين عن طلب الرزق، يشهد في سنة ١٩١٩ بميدان الأوبرا حشدًا وطنيًا ضخمًا مهتمًا بشأن الزعماء الأربعة المبعدين عن بلادهم ظلمًا؛ بسبب دفاعهم عن استقلالها، فينهره أحد الجنود ليبتعد عن مكان الاجتماع، فيصيح في وجهه: "يحيا سعد!" ويسقط صريعًا برصاصة الجندى.

إني لأعيد عليك هذه الحادثة في بضعة السطور الآنفة، وبي خجل من ضعف أدائها بالقياس إلى ما بها من قوة في الأصول تستدر العبرات، بل تكاد تنتزع القلوب من الصدور.

هذا، ولا أراني في حاجة إلى ذكر أن الأقاصيص الأخرى كل في موضوعها، لا تقل أثرًا عن هذه في النفس، مضافًا إلى براعة سياقها، وحسن اختيار مرماها، ووصف خلاب، تتخلله معلومات ومزكونات ومستخلصات من بطون السير، تتركز فيها محتويات مجلدات جمة كما تتركز أزاهر حدائق كثيرة العدد في قطرات من العطر. ويجدر بي قبل أن أختم هذه الكلمة أن أذكر للمؤلف بالحمد الذي يوافقني عليه كل محب لهذه البلاد، أنه أدار حوادث

معظم أقاصيصه على محور لم يختلف عنصره وإن اختلفت صوره، وذلك المحور هو تمجيد مصر في أشخاص من شعبها. فـ"البطل المجهول" و"الأنشودة المصرية" و"الإسكندر والمصرية الحسناء" و"ابنة النيل" و"بأمر الحاكم بأمره" و"أنطونيو والعرافة"إلخ.. كل أولئك يصدر عن مصر، أو يمر بك في بلد آخر شرقي أو غربي، معيدًا عليك ما ظهر، أو كاشفًا لك ما استتر،من شؤون عامة أو خاصة في تلك الأقطار، والمرجع الذي يستقر عليه فكرك من جولات القلم في تلك الشؤون هو الحمية المصرية، أو العفاف المصري، أو الإباء المصري، أو الوفاء المصري، أو الذكاء المصري، في واحد واحد من الأشخاص البارزين في تلك الأقاصيص.

فالتصرف الجميل في التنقل بذهن المُطالِع بين كل عجيب وطريف ورائع، من الصفات والأنباء في مختلف من المواطن، ليستخرج به أروع ما يقتبسه العقل، أو أبدع ما يصبو إليه القلب من فضائل ممثلة، تعلي شأن مصر في نفوس أهليها أو في نفوس الأجانب عنها، أليس مما يدعو بحق إلى جعل الثناء على ذلك المؤلف المتفنن البارع والصديق الأريحي الكريم مسكًا لختام هذه المقدمة؟!

خليل مطران

مصر – ٥ يناير ١٩٣٣

صور أروع آلام الحياة

للأستاذ محمود رمزي نظيم

صغت ألوان "الضحايا" عجبًا ... يا صديق القارئين
كل من يقرأ هذا الأدبا ... يقرأ السحر المبين
صفحات هي بستان البيان ... وأزاهير الأدب
ألف الكاتب من خضر الجنان ... طاقة الزهر الحزين
شاعر وجدانه أرسلها ... للقلوب الشاعره
ورسالات الأسى يحملها ... قلبه الحي الأمين
أيها الباكي لقد أبكيتنا ... حين رجعت الصدى
أيها القصاص قد أشجيتنا ... فبكينا مرغمين
قلم يا صاح أم قيثارة ... أسمعتنا لحنها؟
كل حرف مازجته دمعة ... أو حنين أو أنين
صور أروع آلام الحياه ... من أفانين "حبيب"
أغفلتها كل أفواه الرواه ... من صريع أو طعين
كم فتى راح فداء الوطن ... وانتسى تاريخه
قام حيًا من ثنايا الكفن ... في ثياب الخالدين
وفتى من نظرة قاتلة ... جاد بالروح وراح

رده فـــــي قصـــــة بارعـــــة عبـــــــرة للعاشـــــــقين

وشـــهيد الفـــن مـــن يرثـــي لـــه غيـــــر أربـــــاب الفنـــــون؟!

رب شـــــخص عصـــــره أهملـــــه وهـــــو النبـــــع المعـــــين

دقـة الإحسـاس أوحـت لحبيـب كـــــل تلـــــك الـــــذكريات

فهـي مـن تصـوير فنـان أريـب فاقرؤوهـــــا معجبـــــين

أبو الوفاء محمود رمزي نظيم

مصر

تمهيد

فن القصص والقصة التاريخية

كان الإنسان منذ بدء الكون –ولا يزال وسيظل إلى ما شاء الله– يحب الأقاصيص، ويميل إلى سماعها، لا فرق في ذلك بين الطفل في كنف والديه، والطالب في مدرسته، والرجل وسط أعماله وأشغاله. فلا غرابة في أن يكون فن القصص أول فن نبغ فيه الإنسان قبل أن يخترع الكتابة، وأول نوع من أنواع الأدب مارسه.

ولست أقصد بهذا التمهيد لمجموعة "الضحايا" أن أكتب تاريخ القصة عند الشرقيين والغربيين، ولكنني أذكر مجمل ذلك التاريخ، لكي أتحدث بعد ذلك إلى القارئ عن الأقاصيص التي نشرتها بهذا العنوان العام: "تاريخ ما أهمله التاريخ"، والتي أقدم له اليوم أول حلقة من حلقاتها، وعن الحقيقة التاريخية ومبلغها في هذه الأقاصيص.

***

إن المصريين القدماء لم يهملوا الفن القصصي، وقد تركوا لنا في أوراق البردي كثيرًا من الأقاصيص التي تتغلب فيها الناحية الغرامية الممزوجة بالتدين الشديد الذي كان يمتاز به المصريون قديمًا، وقد تناول كثيرون من علماء إنجلترا وفرنسا وألمانيا تلك الآثار التي تركها المصريون في هياكل الآلهة ومقابر الملوك، فنقلوها إلى مختلف لغاتهم،

واستعانوا بها في دروسهم ومباحثهم؛ لمعرفة ما كانوا يجهلونه من دقائق الحياة المصرية في تلك العصور الغارقة في القدم.

ومارس الأقدمون فن القصص، فترك لنا اليونانيون والرومانيون في الغرب، والصينيون واليابانيون والهندوكيون في الشرق، نماذج بديعة من الفن القصصي. ولم يهمل العرب هذا الفن، بل إنهم قطعوا به شوطًا بعيدًا، وأقاصيص "الأغاني" مشهورة رائعة، أما "ألف ليلة وليلة" فتعد آية من آيات هذا الفن، وقد أعجب بها الغربيون فنقلوها إلى معظم لغاتهم.

كانت موضوعات الأقاصيص من قبل خيالية، ثم وجد واضعوها في حوادث الحروب والغزوات ينبوعًا فياضًا، فجعلوا يصوغون تلك الحوادث في قالب جذاب، ثم راحوا يستمدون من حياة مواطنيهم اليومية موضوعات تجمع بين الحقيقة والخيال، إلى أن بلغ ذلك الفن"فن القصص" أوج الكمال في هذا العصر، حيث أصبح بين أنواع الأدب أكثرها ذيوعًا، وأغزرها مادة، وأحبها إلى الكتاب والقراء على السواء.

***

ولا شك في أن فرنسا كانت في القرون الأخيرة ولا تزال إلى الآن أسبق الأمم في هذا المضمار. وإذا تجاوزنا "رابليه" ومعاصريه، فإننا نجد في فرنسا رهطًا من الأدباء الأعلام نبغوا في وضع الأقاصيص وطرقوا جميع أنواعها. فهناك فولتير، وشارل نوديه، وبالزاك، وإسكندر دوماس، وفلوبير، وألفونس دوديه، وإميل زولا، وهو يسمان، وفرانسوا كوبيه، وأناتول فرانس، وموسيه، وموباسان.. وغيرهم ممن يضيق المقام عن

ذكرهم. وإذا كان أدباء إنجلترا وروسيا وألمانيا وغيرها قد سبقوا زملاءهم الفرنسيين في بعض أنواع الأدب الأخرى، ففضل التقدم في الفن القصصي يرجع إلى الفرنسيين وحدهم بلانزاع، فهم الذين أوجدوا جميع المذاهب القصصية التي أقرها النقد الأدبي.

وتاريخ الأدب الإيطالي حافل أيضًا بالطرائف من هذا القبيل، ويكفي إيطاليا فخرًا أنها أنجبت بوكاتشي، وساكيتي، وبانديلو، وغيرهم من واضعي الأقاصيص الخالدة.

ونبغ في ألمانيا هانس ساخس، ووالدس، وهاجدورن، ونيكولاي، وشوبارت، وعلى الخصوص هوفمان الذي ترجمت أقاصيصه إلى جميع اللغات الحية.

ولإنجلترا أن تفاخر من جهتها بشوسر، ودرايدن، وبريور، وديكنز، وقد طافت أقاصيص ديكنز العالم بأسره، ونقلت إلى كثير من اللغات.

وعالج كثيرون من أدباء إسبانيا فن القصص، ونجحوا فيه إلى حد بعيد، ومعظم أولئك الأدباء الإسبانيين نقلوا إلى لغتهم أقاصيص ألف ليلة وليلة ونوادر العرب كما جاءت في كتاب الأغاني، وحاولوا أن يقلدوها، ويضعوا مثلها باللغة الإسبانية، مستمدين موضوعاتهم من حوادث الأندلس في عهد الحكم العربي.

ووضع الأميركي واشنطن أرفنج بضع أقاصيص سماها "قصص الحمراء"، تقع معظم حوادثها في قصر الحمراء بغرناطة.

ويحتل أندرسن الدانماركي مكانًا خاصًا بين واضعي الأقاصيص في بلاد الغرب.

أهمل أدباء العربية فن القصص، ولا يزال إهمالهم هذا إلى الآن مما يدعو إلى الأسف، فكتاب العربية الذين يمارسون هذا النوع من أنواع الأدب قليلون، ومعظمهم يعمد إلى ترجمة الأقاصيص الإفرنجيةترجمة حرفية، أو يحورها بصورة يعتقد معها أن تلك الأقاصيص أصبحت شرقية أو عربية، ما دامت الأسماء الغربية فيها قد تبدلت وتغيرت.

ولكن القليل الذين وقفوا أقلامهم على خدمة الفن القصصي والنهوض به والدعوة إليه، يعملون بنشاط واجتهاد يحمدون عليهما، ولابد أن يكلل مجهودهم بالنجاح عاجلًا أو آجلًا، فيأخذ هذا الفن مكانه بين أنواع الأدب الأخرى، كما هي الحال في أوروبا.

***

حدث في العام الماضى أن عالجت في مجلة "كل شيء" الغراء بعض الموضوعات الأدبية، فكتبت عن التأليف وحماية حقوق المؤلفين والظروف الغريبة التي تكتنف المؤلف وطبع نفثات قلمه في مصر. فليسمح لى القارئ أن أدون في هذا "التمهيد" ملخص رأيي في ذلك كله، وأن أضيف إليه كلمة موجهة إلى أصحاب شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، الذين يتولون الآن طبع هذه الأقاصيص ونشرها:

منذ ست سنوات طلب مني أحد أصحاب الصحف اليومية ترجمة

رواية فرنسية مشهورة إلى اللغة العربية لنشرها تباعًا في جريدته، فلبيت الطلب، ونقلت إلى العربية تلك الرواية، التي كان مؤلفها الفرنسي قد طبع منها مئات الآلاف من النسخ في فرنسا.

وكان في نيتى أن أطبع روايتى في كتاب بعد الانتهاء من نشرها على صفحات الجريدة، ولكن حدث بعد الانتهاء من ذلك أن كنت جالسًا في إحدى المقاهي، فمر أمامي بائع كتب وبيده رواية يدل عنوانها على أنها هي هي الرواية المترجمة المشار إليها!

أخذت نسخة من الرواية، وجعلت أقلب صفحاتها، وأقرأ بعضها، فإذا بي أمام ترجمتي الحرفية، التي سطا عليها أحد أصحاب المطابع، وجعل يجمعها كل يوم بعد صدور الجريدة، حتى إذا ما انتهت الرواية كان صاحبنا قد طبعها "بلا إذن ولا دستور" وألقاها للبيع في السوق، بعد أن شطب اسم المترجم الحقيقي ووضع محله اسم رجل آخر!

وحاولت أمام تلك اللصوصية الغريبة أن أدافع عن نفسي وأسترد حقى، لكنى فشلت، واضطررت إلى العدول عن نيتي فلم أطبع كتابي الذي لا يزال إلى الآن متداولًا في السوق باسم رجل آخر، لم يكتب في الرواية سطرًا واحدًا.

هذا مثل من الأمثلة العديدة التي تقع كل يوم، وحادث من الحوادث التي أصبحت عادية سارية. فالمؤلف أو المترجم لا يستطيع حماية نفسه وحماية مؤلفاته من سطو اللصوص أمثال صاحب المطبعة الذي أشرت إليه.

وقد رفعت أمام المحاكم الأهلية قضايا مدنية طالب فيها رافعوها بما يسمونه حقوق التأليف وحمايته، فخسروا قضاياهم، وكانت النتيجة أن تمادى بعض أصحاب المطابع في سطوهم على حقوق الغير.

وما دام الأديب يعلم أن عمله غير مصون، وأنه لا يتمتع بحماية القانون والنظام، أسوة بغيره من "أصحاب الأملاك"، إذ إن الكتاب يجب أن يكون ملكًا لصاحبه، أقول ما دام هذا هو حال لأديب، فإن نشاطه لابد أن يظل عرضة لكبوات تتلوها كبوات.

***

وفي هذه المناسبة أذكر أن في أوروبا، وعلى الخصوص في فرنسا، جمعيات تسهر على حماية حقوق المؤلفين والمترجمين من عبث العابثين، فضلًا عن أن القوانين القائمة هناك تضمن لهم تلك الحماية، وتكفل لهم حقوقهم.

ففي فرنسا مثلًا جمعية اسمها "سوسيتيه دي جان دي ليتر" أي جمعية حملة الأقلام، ينضوي تحت لوائها كتاب فرنسا على اختلاف ألوانهم ونزعاتهم، وهي تراقب عن كثب بواسطة مندوبيها ووكلائها ومكاتبيها في جميع أنحاء العالم، كل ما ينشر في الجرائد والمجلات وما يصدر عن المطابع والمكاتب، وليس على المؤلف أو المترجم أن يهتم بالسهر على حقوقه، فإن الجمعية تفعل ذلك بالنيابة عنه، وتحصل له ما يستحقه من رسوم وأتعاب ممن ينقلون أو يترجمون شيئًا من نفثات قلمه. ولهذه الجمعية وغيرها من الجمعيات المشابهة لها وكلاء في مصر،

بحيث أن حقوق المؤلفين الفرنسيين تظل محترمة محفوظة في خارج وطنهم كما هي محترمة محفوظة داخل فرنسا.

وقد نظرت المحاكم المختلطة بمصر في قضايا رفعها وكلاء تلك الجمعيات على بعض الكتاب المصريين، الذين ترجموا إلى العربية مؤلفات فرنسية دون أن يحصلوا على تصريح بذلك من أصحاب تلك المؤلفات، وحكمت لهم بتعويض مالي.

***

ووقعت لي حادثة أخرى عوضت علي بعض الضرر الذي لحقني بسبب الحادثة الأولى:

كتبت مرة قصة مصرية اسمها "رمال مصر" باللغة الفرنسية **Sables d'Egypte**""، وبعثت بها إلى مجلة فرنسية أدبية تصدر في باريس، فنشرتها، وأرسلت إلي مبلغًا من المال، وطلبت أن أكتب لها غيرها ففعلت.

ومرت سنتان على نشر القصة، وإذا بي ذات يوم أتلقى كتابًا من إدارة المجلة تقول لي فيه أن مجلة أخرى نقلت عنها قصة "رمال مصر" ودفعت لها "حقوق التأليف" وأرسلت إلي إدارة المجلة مع كتابها تحويلًا بالمبلغ! ولو لم تفعل ذلك لما طالبتها بشيء؛ لأنني كنت أجهل تمامًا أن مجلة فرنسية أخرى نقلت تلك القصة، وأن لي عليها حقوقًا في استطاعتي أن أطالب بها!

ومرت شهور أخرى، وإذا برسالة ثانية من إدارة المجلة تنبئني بأن إحدى شركات السينما ترغب في مفاوضتي لأجل الحصول على حق إخراج تلك القصة المصرية في شريط سينمائي، وتطلب معرفة الشروط التي أشترطها لذلك.

فوضت الإدارة نفسها بأن تنوب عني في مخابرة الشركة، وتمت المخابرة بين الطرفين، وأبلغتني إدارة المجلة نتيجة الاتفاق وشروطه، مشفوعة أيضًا بمبلغ من المال دفعته شركة السينما فورًا!

هذا مثال مما يصنعه الأوربيون مع المؤلفين، أرويه هنا لمقارنته بالحادث الذي سقته إلى القراء عن السرقات الأدبية في مصر، ولكي يظهر لهم الفارق بين احترام حقوق التأليف في مصر واحترامها في بلاد الغرب.

فهناك، المؤلف يربح، والناشر يربح، وكل من يستفيد من نفثات قلم المؤلف يربح ويفيد سواه.

***

وأقول بهذه المناسبة أن جميع الروايات الإفرنجية التي تمثلها الأجواق الأوروبية في مصر في فصل الشتاء، على مسرح الأوبرا أو غيره، يدفع عليها رسوم يقبضها وكيل جماعة المؤلفين في مصر، ويبعث بها إلى أصحاب الشأن في بلادهم. فكأن المؤلف هناك مطمئن على تحصيل حقوقه دون أن يحرك ساكنًا أو يحمل نفسه مشقة البحث والتحري؛ لأن الهيئة المنظمة التي ينتمي إليها تسهر على حقوقه، ولا

تترك لأحد مجالًا للسطو عليها، ليس فقط في الداخل بل أيضًا في الخارج.

أما عندنا، فأي مؤلف مسرحي في استطاعته أن يحمي رواية وضعها من سطو الأفراد والجماعات "الفنية" بل أي مسرح يستطيع أن يحمي روايته من ذلك السطو، وهو صاحبها ودافع ثمنها إلى المؤلف؟ يموت المؤلف في أوروبا فتبقى رواياته ملكًا لورثته، ينتفعون بريعها مدة معينة، تتراوح بين الثلاثين والخمسين سنة بعد وفاته. أما هنا، فإن روايات المؤلف تصبح مشاعًا بين الناس وملكًا للجميع، وهو ما زال حيًا يسعى إلى رزقه والرزق يهرب منه!

ومن أجل ذلك، نرى المؤلفين هناك ممتلئين نشاطًا وحماسًا، ونراهم هنا في غمرة من اليأس والوهن.

***

ولا بد لي من التطرق إلى الحديث عن أصحاب المكاتب والمطابع، فإن البعض منهم –ويا للأسف– يقفون حجر عثرة في سبيل النهضة الأدبية ونشر الثقافة، وإبراز المؤلفات إلى عالم الوجود.

إن الباحث عن الطرق والأساليب المتبعة في طبع الكتب ونشرها في بلادنا، يهوله ما يصل إلى علمه من أمرها! وأخشى لو تبسطت في هذا الموضوع أن أسيء إلى هذا أو ذاك من أصحاب المكاتب والمطابع، وليس الغرض من تدوين هذه الآراء الإساءة إلى أحد.

ولكن لا بد من الإشارة إلى أعمال البعض ممن يتولون طبع الكتب ونشرها، وهي أعمال أقل ما يقال فيها أنها لا تتفق مع العرف والضمير والعدل والإنصاف، وتلحق بالناشرين الذين يغارون على سمعة مهنتهم الشريفة، ضررًا أدبيًا كبيرًا، قد يكون أيضًا في بعض الأحيان ماديًا.

ولو بحثنا بين جماعة الناشرين في مصر، لوجدنا لذلك الرجل الذي حدثت القارئ عنه وعن سرقته، زملاء يمشون معه يدًا بيد، وجنبًا إلى جنب!

وأختم هذا الحديث بكلمة شكر وثناء أوجهها إلى الأفاضل أصحاب مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، الذين أتاحوا لي فرصة جمع هذه الأقاصيص وتقديمها للقارئ في كتاب، والذين لقيت فيهم الإتقان في العمل، والنزاهة في المعاملة، والدقة في المواعيد، واحترام الحقوق والواجبات على السواء، والحرص التام على كرامة المهنة وسمعتها.

***

بقي علي أن أقول كلمة في "القصة التاريخية"، وفي هذه المجموعة التي أقدمها اليوم للقارئ، والتي عزمت بإذن الله على أن أتبعها بغيرها.

إن كتب التاريخ تقص علينا حياة الأمم والعشائر والجماعات، أما الرواية والقصة إذا كان موضوعهما مستمدًا من حوادث التاريخ، فإنهما تقصان علينا حياة الأفراد وسط تلك الجماعات والعشائر والأمم، وهذا ما توخيته من وضع الأقاصيص التي جعلت لها هذا العنوان العام: "تاريخ ما أهمله التاريخ".

لقد كتب كثيرون من أدباء العربية "روايات تاريخية" فتحوا بها في عالم الأدب فتحًا جديدًا، وأذكر بينهم في هذه المناسبة المرحوم جورجي زيدان، منشئ "الملال"، والزميل الصديق معروف الأرناؤوط، صاحب جريدة "فتى العرب" الدمشقية، وواضع رواية "سيد قريش" الطريفة.

لكن القصة التاريخية كانت مهملة في الأدب العربى، خلافًا للرواية التاريخية التي عالجها بعض الكتاب كما قلت. وقد حاولت أن أسد الفراغ، وأعد من يمن طالعي أن أوفق في محاولتي هذه بعض التوفيق.

في سنة ١٩٢٧ نشرت في مجلة "المصور" البيان الآتي:

"تجمع لدي عدد كبير من الرسائل، يسألني فيها القراء أسئلة تنحصر جميعها في هذه الكلمات: هل القصص التي تنشر في "المصور" بتوقيعي وبعنوان: "تاريخ ما أهمله التاريخ" حقيقية أم خيالية؟ ويسألني البعض من أين استمد التفاصيل، وعلى أية كتب من كتب التاريخ أعتمد في سرد الحوادث".

وعلى هذا كله أجيب بصراحة واختصار:

الحوادث التي أوردتها بهذا العنوان: "تاريخ ما أهمله التاريخ" حقيقية واقعية في جوهرها، خيالية في تفاصيلها.

فقد رأيت أن في التاريخ عامة –وفى تاريخ البلدان الشرقية خاصة– كثيرًا من الحوادث التي يمر بها القارئ دون أن يعلق عليها أهمية ما، أو يلتفت إلى تأثيرها وأثرها في التاريخ وفي الأخلاق، ففكرت في أن أتناول

تلك الحوادث، الصغيرة في حد ذاتها، الكبيرة بمغزاها، فأدونها في قالب قصصي، وأحيطها بهالة من الخيال تجعل سردها مستحبًا للقراء، ومطالعتها أقل جفاء من مطالعة كتب التاريخ المجردة.

ولست مبتكر هذا النوع من الكتابة، فقد سبقني إليه كبار الكتاب من شرقيين وغربيين. والروايات التاريخية كثيرة في الشرق والغرب، لكنني اخترت الأقاصيص التاريخية الصغيرة دون الروايات الطويلة، التي يتطلب وضعها مجلدًا أو أكثر، فجعلت أنتقي من كتب التاريخ الحوادث التي يسهل وضعها في قالب قصصي يقع في بضع صفحات، فأقدمها إلى القراء بعد أن أتخيل لها التفاصيل التي أراها قريبة للحقيقة أو مطابقة لها.

وقد سألني أناس عن أسماء الكتب التي أستقي منها موضوعات قصصي التاريخية، ولكنني لا أستطيع الرد على هذا السؤال؛ فكتب التاريخ كثيرة، وإنني أستعين بها جميعًا؛ لأن في كل منها عشرات من الحوادث والوقائع والآثار والذكريات، التي توحي للأديب شتى الموضوعات الصالحة لبناء قصة تاريخية.

هناك المتاحف ودور الآثار وما فيها، وهناك أيضًا المكاتب العامة والخاصة وما تحويه من مخطوطات ومحفوظات، وكلها مصادر يرجع إليها الكاتب إذا ما أراد أن يحدث قراءه عن وقائع التاريخ المجهولة أو الغامضة، فضلًا عن ذاكرة الشيوخ المعمرين الذين يقصون على الجيل الحاضر حوادث الجيل الغابر.

***

فالذي أقدمه إذن للقارئ اليوم هو الحلقة الأولى من سلسلة: "تاريخ ما أهمله التاريخ"وعنوان هذه الحلقة: "الضحايا".

وقد يسأل القارئ لماذا اخترت لها هذا العنوان؟

فجوابي: إن جميع أبطال هذه القصص راحوا ضحايا.. ضحايا الظلم والاستبداد.. ضحايا الغدر والخيانة.. ضحايا الحقد والانتقام.. ضحايا الطمع والجشع.. ضحايا الغرور والجنون.. ضحايا الثورات والحروب.. ضحايا العادات والتقاليد.. ضحايا السياسة والخداع.. وأخيرًا.. ضحايا الحب والهيام!

فعسى القراء أن يجدوا في هذه المجموعة الأولى تسلية وفائدة، وعسى أسلوب هذه الأقاصيص التاريخية أن يجد حظوة لديهم، تشجعني على المضى في خدمة الأدب من هذا السبيل.

حبيب جاماتي

مصر

يناير ١٩٣٣/رمضان ١٣٥١

البطل المجهول

"في ميدان التضحية متسع للجميع"

سعد زغلول

١٣ نوفمبر ١٩١٨

دوى في البلاد صوت سعد مصر، فاهتزت له مصر من أقصاها إلى أقصاها، وسارت نبراته في جسم الأمة سير الكهرباء، فوقف أربعة عشر مليونًا من المصريين، ماسكين أنفاسهم، يتطلعون إلى الزعيم الجليل وصحبه، وقد قصدوا إلى "دار الحماية"، يعربون لعميدها عن أماني مصر القومية، ويطلبون القيام بالعهود المقطوعة، وبالجلاء المرغوب فيه.

وكان ما كان من أخذ ورد، وصدق يقابله رياء، وصراحة تقابلها مراوغة، وود يقابله جفاء.

امتنع الأسد البريطاني عن إعادة "الأمانة" إلى أصحابها، وكانت وديعة في عرينه!

٨ مارس ١٩١٩

حشدت بريطانيا العظمى المنتصرة جحافلها وأساطيلها، وجردت سلاحها في وجه من جاءها سافر الضمير مسالمًا، شاهرًا بيده الحق الناصع سلاحًا.

عدت المطالبة بالحياة الحرة للوطن والعشيرة جرمًا شنيعًا وعصيانًا يعاقب عليه، فأصدر القوي أمره بنفي الضعيف الأعزل، وإبعاده عن وطنه وعشيرته.

أعمى الصلف والغرور بصر القوم وبصيرتهم، فغاب عنهم أن وراء الأفراد الأربعةالذين أبعدوا بلادًا بأسرها تشد أزرهم، وتشعر شعورهم، وأن الإساءة إلى سعد ورفاقه إنما هي إساءة إلى وادي النيل من أدناه إلى أقصاه.

طير الإنجليز بيدهم الشرارة التي أصابت المراجل فأحدثت فيها ذلك الانفجار الهائل، فثار الشعب ثورته، وصعدت صدور أبنائه هتافًا واحدًا وأمنية واحدة: "يحيا سعد! الاستقلال التام!".

***

في التاريخ عظات وعبر، لكن ابن آدم لا يتعظ ولا يعتبر! تغلب داود، راعي الأغنام الإسرائيلي، على جالوت الجبار الفلسطيني، ولم يكن بيد داود سوى الحجر والمقلاع.

وتغلب اليونان على الفرس، والبلغاريون على الأتراك، والأمريكيون على الإنجليز، والهولانديون على الإسبان..

في كل عصر من العصور الخالية، ضرب الضعيف القوي ضربة ألقته صريعًا، وحملته على الاعتراف مرغمًا بما أبى الاعتراف به مخيرًا. لكن الإنسان يسدل بسرعة على الماضي ستار النسيان، فلا تؤثر فيه العظة

ولا تنفع الذكرى.

والتاريخ لا يزال يعيد نفسه، والأرض تدور دوراتها، والجوارح تنقض على الطيور المهيضة الجناح، والسباع تطارد الغزلان في الغابات والصحاري، والإنسان يهضم حق أخيه الإنسان!

***

"في ميدان التضحية متسع للجميع!"

ما أصدق كلمات سعد زغلول هذه، وما أوسع معناها!

كان سعد في ميدان التضحية سخيًا، وجاد سعد ورفاق سعد في الجهاد بأموالهم وراحتهم وحريتهم وهنائهم، في سبيل القضية القومية المشتركة، فكانوا للعالم قدوة ومثالًا.

ولكن ما أكثر الشهداء الصغار بجانب الشهداء الكبار، وما أكثر الضحايا المجهولة بجانب الضحايا المعروفة المشهورة!

كم من وضيع لم يكن يملك غير نفسه، فجاد بها في تلك الأيام العصبية السوداء؛ عملًا بمبادئ سعد، وإجابة لنداء البلاد، وترضية للضمير الحي والنفس الأبية.

لا أزال أذكر حادثًا وقع أمامي، في مارس سنة ١٩١٩، فملأني روعة؛ إذ إنني لمست فيه قلب الصغار النابض، وشاهدتت روحهم المجردة، وأيقنت أن في صدور أبناء الشعب جذوة شعور كامنة، أذكاها الزعيم المرسل بسحر بيانه، وقوة إرادته، وثبات إيمانه، واتقاد وطنيته!

كان يجيئني في مكتبي في تلك السنة غلام في العاشرة من عمره، يدعى "برعي"، وكان ذلك الغلام بائع أوراق "يانصيب"، يسرح بها من الصباح إلى المساء، ويعرضها على زبائنه مبتسمًا، ناظرًا إلى كل منهم نظرة ملؤها الأمل والرجاء، مدعمًا حركاته بقول لا يتغير ولا يتبدل: "الورقة الباقية يا بك.. آخر ورقة يا نصيب.. هي الكسبانة يا بك.. خدها وحياة النبي!".

وكان الناس يبتاعون منه أوراقه؛ لا طمعًا في الربح ولا رغبة في "رؤية البخت"، بل إجابة لرجاء الغلام وعملًا بدافع الإحسان.

كانت أمه "غسالة" تطوف المنازل كل يوم، ولا تذوق الراحة إلا في يوم الجمعة من كل أسبوع. لكنها أصبيت بمرض أودى بنظرها، فاضطرت إلى ملازمة مسكنها.

وكان أبوه بناء، لكنه سقط ذات يوم من علو شاهق، فأصيب بكسر في رجله، وجرح في كتفه، فأقعده ذلك عن العمل، وصار مع زوجته عالة على الصبي الصغير المسكين.

أرادت الأم أن تخرج للتسول في الشوارع والطرقات، لكن الأبن الطيب القلب حال دون رغبتها، وتعهد بالقيام بمعيشة أبويه.

وبدأ منذ ذلك الحين يبيع أوراق اليانصيب، ويعود في كل مساء إلى كوخه بجوار القلعة، فيضع بين يدي والده ما اكتسبه من دريهمات.

كنا نعلم ذلك جميعنا، وكنا نبتاع أوراق اليانصيب من برعي

الصغير، مرتاحين إلى عملنا، واثقين أننا نقوم بإحسان مزدوج.

***

لكن شاءت الأقدار إلا أن تحرم الأم الضريرة والأب المقعد من سندهما ومعينهما الوحيد.

ففي صبيحة يوم كالح من أيام مارس سنة ١٩١٩، هبت على القاهرة رياح هوجاء شديدة الحرارة، وكأني بالطبيعة وقد ثارت في ذلك اليوم ثورتها، تقوم لمشاركة شبيبة مصر في احتجاجها على نفي الزعيم الكبير، وخرق المواثيق، ونكران العهود.

مشت الجماهير في مظاهرة رهيبة، ماجت بها الميادين والشوارع، وشق الهتاف بحياة سعد واستقلال مصر كبد الفضاء.

وكنت ترى الكبير والصغير، والغني والفقير، وصاحب الجاه والصعلوك الحقير، يسيرون جنبًا إلى جنب، وقد اختلجت صدورهم بشعور واحد وعاطفة واحدة!

ومشى برعي أيضًا مع من مشى في تلك المظاهرة.

بلغ القوم في سيرهم ميدان الأوبرا، فبدأ ذلك الميدان كأنه بحر زاخر متلاطم العجاج، وبرز لهم الجند الإنجليزي شاكي السلاح في منافذ الميدان، وبعد التهديد والوعيد، صوب أولئك الأبطال الأشاوس فوهات بنادقهم إلى الصدور، وأطلقوا عليها رصاصهم الحاصد.

فسقط في الطريق من سقط من طلاب الحق، وفرقت السيارات

المدرعة والرشاشات السريعة جماهير المتظاهرين. وأصيب برعي في ذلك اليوم برصاصة استقرت في فخذه الأيمن.

***

نقلناه إلى مكتبنا، ونادينا من ضمد له جرحه، وكان الغلام يئن من شدة الألم.

وبينما نحن كذلك، دخلت علينا سيدة كانت قد سمعت بوقوع الحادث في الشارع فجاءت تستطلع الخبر، وجعلت تساعدنا وتواسي الجريح.

قالت له: لا تبك يا بني! ألا تعلم أنك تتألم في سبيل مصر؟

فأجابها بصوت ضعيف: أعلم ذلك.

فسألته: لماذا اقتربت من الجند وقد رأيتهم يهددون الناس ببنادقهم؟

فأجاب برعى: رأيت أحدهم مقبلًا علي فرفعت صوتي صائحًا في وجهه: يحيا سعد! فأطلق علي الرصاص، أتظنين أنني سأموت يا سيدتي؟

فهطلت الدموع من عيني السيدة دفعة واحدة، وانكبت على الغلام تقبله وتشجعه، فأيقنت أن في الإحن والملمات جميع نساء مصر لفتيان مصر أخوات وأمهات!

ولم تشأ تلك السيدة أن تدع الصبي الجريح ينقل وحده إلى

المستشفى، بل رافقته إليه، ولم أسمع شيئًا عنها منذ ذلك الحين.

ولم أرقط الغلام بائع أوراق اليانصيب منذ ذلك الصباح المشؤومولم أره، ولكنني علمت أنه قضى نحبه في مستشفى قصر العيني، متأثرًا بجراحه.فأبلغت الخبر إلى زبائن برعي، وتبرع كل منهم "بما فيه النصيب" لإعانة أم بائع اليانصيب وأبيه.

هكذا كانت الصبيان تشارك الكبار في النداء باستقلال مصر وبحياة سعدها.

وهكذا كان أولئك الشهداء المجهولون يسقطون في ميدان الجهاد، فيضحون بأنفسهم على هيكل الوطنية، ولا يدون أحد في سجل التاريخ تضحيتهم.

فلنستمطر على أرواحهم الزكية غيث الرحمة والرضوان، فإنهم من بناء الاستقلال بمثابة الأساس.

الأنشودة المصرية

أوقفت الأعمال في بحيرة نيمي بإيطاليا، وعدلت الحكومة الإيطالية عن محاولة استخراج الكنوز المخبأة في المركبين اللذين أغرقهما الإمبراطور كاليجولا في تلك البحيرة.

"الجرائد – في شتاء ١٩٣١"

جلس قيصر كايوس أوغسطس أجرمانيكوس الملقب بكاليجولا "**Caligula**" على عرش روما في السنة السابعة والثلاثين للميلاد، وظل محتفظًا بالصولجان إلى السنة الحادية والأربعين، التي اغتاله فيها الروماني الأصيل كيرياس، فأنقذ الإمبراطورية من الخراب والدمار، وأزال عن الشعب الروماني ذلك الكابوس المزعج.

كان كاليجولا جميلًا متأنقًا، يميل إلى الفرح والمرح، لكنه كان يحمل بين ضلوعه قلبًا قد من الصخر الأصم، ويتوق دائمًا إلى الضرب والبطش، لا يحلوله عيش إلا إذا خضب يديه ولو مرة واحدة في يومه بنجيع الأبرياء.

نهض ذات يوم وهو متعطش كعادته إلى الدماء، فأمر زبانيته بأن يذبحوا أمام عينيه أربعين من الأسرى والعبيد والأشراف الذين تآمروا على حياته، وعندما أشار عليه أحد المقربين إليه بأن يعفو عنهم لكي يكتسب بعفوه حب الشعب الروماني، أجابه صائحًا: "وددت لو كان للشعب

الروماني رأس واحد لكى أقطعه بضربة واحدة!".

وكان الرومانيون في ذلك العهد، عندما تقع مثل هذه الحوادث الدموية، لا يجرؤون على نقل أخبارها، بل يكتفون بقولهم المعروف: "الإمبراطور يلهو!".

****

غضب كاليجولا ذات يوم على القنصل أفرانيوس"**Afranius**"، فألقى به من نافذة القصر إلى الشارع، حيث سقط المسكين ميتًا، فصاح الشعب قائلًا:من تعين لنا قنصلًا مكانه ياقيصر؟

فأجاب كاليجولا مقهقهًا:حصاني!.

وعين ذلك الإمبراطور المعتوه حصانه أنسيناتوس"**Incinatus**" قنصلًا رومانيًا! وكان يمتطي متن ذلك "الحصان – القنصل" ويخرج للنزهة في شوارع المدينة، فيطأ الحصان بحوافره رؤوس الرومانيين الساجدين أمام قيصر، فيضحك كاليجولا، ويردد الشعب خائفًا مرتعدًا: "الإمبراطور يلهو"!.

***

قال لعشيقته ذات ليلة بعد أن سكر بنشوتي الخمر والغرام:

– قبضت اليوم على أربعة من أشراف روما، قيل لى إنهم يتآمرون علي، وقد أعددت سوطًامن جلد الماعز، أريد منك أن تضربي به كل واحد من أولئك الأشراف الأربعة ثلاثين ضربة على مرأى من الناس.

فذعرت المرأة وقالت:

اعفني من هذا أيها الحبيب، ولا تجعلني أعتدي على حقوق الجلاد. ألا تخشى أن يؤدي هذا الاضطهاد إلى كره شديد تغذيه أعمالك في نفوس الرومانيين؟

فأجاب قيصر ضاحكًا:

ليكرهني الرومانيون! هذا لا يهمني. ولا أرغب إلا في شيء واحد وهو أن تخشاني روما وترتعد أمامي!

وضربت المرأة "عشيقة قيصر" كلًّا من الأشراف الرومانيين ثلاثين جلدة أمام الناس، في أحد الميادين العامة.

وردد الشعب الخائف الخالع: "الإمبراطور يلهو!".

***

جاءته يومًا المرضع جونيا"**Junia**" التي حملته على ذراعيها طفلًا، وأرضعته لبن ثدييها، وكانت تحنو عليه حنو الأم على ولدها، وقالت:

– أي بني قيصر، جئت أطلب منك أن ترعى بعين عنايتك ابنتي ستيلا"**Stella**"، التي عرفتها طفلة ولعبت معها في الطرق والغابات، وقد أصبحت الآن فتاة كبيرة أبحث لها عن زوج بين شبان روما الأشداء النبلاء.

ووقع نظر الإمبراطور على أخته في الرضاعة، فهاجت حواسه البهيمية، وأراد أن يجعل من الفتاة الطاهرة خليلة ساقطة.

رفضت المسكينة أن تنزل على إرادته، وهال أمها أن ترتكب في قصر الإمبراطور تلك الفعلة الشنعاء ولا تسقط قبة الفلك على الأرض، فرفعت يديها تتضرع إلى الآلهة، طالبة إنقاذ ابنتها من ذلك الوحش البشري.

لكن الآلهة لم تسمع نداءها، وشربت الفتاة السم فماتت، وشربت الأم السم فماتت أيضًا.

وجاء ابنها يحاسب الإمبراطور على موت المرأتين، فذبحه قيصر بيده على عتبة الباب، وألقى جثته إلى الخارج، فلطخت بدمها بلاط الشارع، ووقف الشعب حولها مبهوتًا مذهولًا، وردد قائلًا: "الإمبراطور يلهو!".

***

خرج كاليجولا مع فريق من رجال حاشيته للصيد والقنص في الجبال والهضاب، فوصل إلى ضفاف بحيرة "نيمى" التي كان الرومانيون يسمونها "مرآة ديانا" نسبة إلى ربة الصيد، ابنة جوبتير العظيم، الإلهة ديانا، حارسة النباتات، وصديقة الأزهار والرياحين.

مر الإمبراطور بمعبد ديانا، المشرف من فوق هضبة خضراء على البحيرة الهادئة، فترجل عن حصانه "القنصل انسيناتوس" وطلب من الكهنة هناك ماء وخمرًا.

ووقع نظره على رئيس الكهنة، فإذا به أمام شيخ جليل، يمشي ببطء متكئًا على عكاز. فسأل عن سن الرجل، فقيل له إنه يناهز المئة، وإنه يخدم "ديانا" منذ ستين سنة.

فضحك الإمبراطور وقال:

اضربوا عنقه! فإنه من العار على روما أن يكون خادم ديانًا فيها شيخًا هرمًا مثل هذا.

وضرب الجنود عنق الكاهن، وضحك رجال الحاشية مرددين: "الإمبراطور يلهو!".

***

ألقى كاليجولا نظرة حواليه، فراق له ذلك الموقع البديع، وقال لخادمه لوسيوس: "ينبغي أن أقيم في هذا المكان بضعة أيام في الشهر".

وحمل لوسيوس رغبة مولاه إلى القناصل والقواد والمقربين من قيصر، فجعلوا يتسابقون في إرضائه، وأسرعوا إلى نقل سفينتين جميلتين من بحر نابولي إلى بحيرة نيمي، وحملوا الخبر إلى الإمبراطور قائلين له إن في استطاعته بعد ذلك اليوم أن يقضي أسبوعًا أو أكثر في إحدى السفينتين، في ذلك المكان الذي وجد حظوة في عينيه.

وأمر قيصر بأن ينفق المال لتوفير أسباب الراحة في السفينتين، فصدع العمال والجنود ورجال القصر لأمره، وأعدوا السفينتين لإقامة قيصر.

نقلت إليهما الأسرة والمقاعد والوسائد من قصر كاليجولا، وجلس الموسيقيون في الأماكن المعدة للجذافين. ووضعت سلاسل من الذهب والفضة محل الأشرعة، وعلقت فيها المصابيح الملونة، ومزجت زيوت المصابيح بالبخور والعطور، وتفرقت النساء في غرف السفينتين وعلى

ظهريهما، لخدمة قيصر، وأصدقاء قيصر.

وقضى كاليحولا ليلة في إحدى السفينتين وليلة في السفينة الثانية.

ثم عاد فقضى في ذلك الفردوس العائم ليالي كثيرة، خطر له في إحداها خاطر غريب، فصاح بمن كانوا يحيطون به:أريد أن أعلم إذا كان الإنسان يغرق في هذه البحيرة أم لا. كم معنا هنا من العبيد؟

فأجابوه:في هذا المركب ثلاثون عبدًا، وفي الثاني عشرون.

- اقذفوا بهم جميعًا إلى الماء!

فصدع الرومانيون الأشراف لإرادة قيصر، وألقوا العبيد في اليم، وجعلوا يضربون بالمجاذيف كل من حاول النجاة منهم، فغرقوا جميعًا، بين الصياح والقهقهة، وردد الشعب المحتشد على شاطئ البحيرة: "الإمبراطور يلهو!".

***

قيل لكاليجولا في صباح يوم من أيام الخريف، إن مؤامرة تدبر لاغتياله، فعهد إلى اثنين من أصدقائه بالبحث عن المتآمرين للقضاء عليهم، وغادر روما مسرعًا إلى سفينتيه، في بحيرة ينمي.

وأراد أن يقضي تلك الليلة في سماع الأغاني والأناشيد، فطلب إلى النساء اللواتي في السفينتين أن يسمعنه أحسن ما عندهن من غناء.

وجعلت كل واحدة من أولئك الأسيرات الغريبات تترنم بأنشودة من

أناشيد وطنها، فتصاعدت من السفينتين ألحان متباينة، ولغات مختلفة، ولهجات متناقضة، وامتزجت في ذلك الجو الهادئ.

واسترعت سمع قيصر أنشودة حزينة، منبعثة من صدر مكلوم، كانت تنشدها فتاة في العشرين من العمر، جاثية على مقربة من سرير الإمبراطور.

أومأ إليها كاليجولا بأن تقترب، فنهضت مرتعشة خائفة، وتقدمت خطوات نحوه، وحثت ثانيًا على ركبتيها. فقال قيصر: انهضى يا ابنتي ولا تخشي شيئًا، ما اسمك؟

- سيفاء.
- من أيالبلاد أنت؟
- من مصر.
- من هو أبوك؟
- اسمه بروكلوس "**Proclus**". كان جنديًا في الجيش الروماني هناك، وتزوج امرأة مصرية، ثم مات وماتت أمي أيضًا، وجيء بي إلى روما، حيث أرسلوني هدية إليك يا قيصر.
- ومن جاء بك إلى روما؟
- الضابط ليبيدوس "**Lepidus**"، من رجال حرسك يا قيصر!
- ليقتل ليبيدوس، تلقى جثته في الماء!

فوثب الجنود على الضابط، وقتلوه ضربًا بالخناجر، وألقوا جثته في

البحيرة، فتهامس المدعوون فيما بينهم: ما الخبر، ولماذا حدث ما حدث؟

ثم رددوا قائلين، مبتسمين: "الإمبراطور يلهو!".

***

وقال كاليجولا لابنة المصرية:أعيدي على مسمعي الأنشودة التي كنت تنشدينها.

وأمر بأن تسكت النساء في السفينتين، ثم ارتفع صوت عذب جميل، مترنمًا بأغنية يذكر لحنها بنَوح اليمام على الأغصان:

في الدنيا بحار كثيرة

لكنك أجمل البحار..

في الدنيا أنهر كثيرة

لكنك أجمل الأنهر..

أمي على شاطئك تغني

وأخي على ضفافك يزرع

يا بحر أمي، يا نهر أخي

يا أجمل البحار! يا أجمل الأنهر!

سكتت الفتاة وساد الصمت، ونفرت دمعة من العين التي لم تعرف الدموع من قبل، عين قيصر كايوس جرمانيكوس كاليجولا!

وقال الإمبراطور: أي بحر تعنين يا ابنتي؟

- بحر الإسكندرية يا قيصر.
- وأي نهر تعنين؟
- نهر النيل يا قيصر.
- من علمك هذه الأنشودة؟
- أمي!
- أنا أيضًا أعرف هذه الأنشودة، فقد كانت جونيا"مرضعتيوأمي" تترنم بها على ضفاف النهر الصغير حيث ربيت! وجونيا رأت النور في مصر، مثل أمك يا بنيتي، وقد قتلت جونيا بيدي!

وساد من جديد سكوت رهيب، مزقه الإمبراطور فجأة، صائحًا بصوت دوي كالرعد في سكون الليل:لقد مللت "مرآة ديانا" كما مللت روما وضوضاءها! لا أريد أن أهجر هذا المكان إلا بعد أن أترك فيه أثرًا للأحقاب المقبلة. عودوا جميعًا إلى البر، بعد أن تفتحوا في كل من السفينتين ثغرة كبيرة تتدفق منها المياه إلى الداخل، فتغرق هاتين الجنتين العائمتين، بما فيهما من أوانٍ وتحف وكنوز وأموال!

ثم التفت قيصر إلى الفتاة المصرية وقال:أما أنت يا ابنتي، فإنني سأجعلك بين نساء القصر معززة مكرمة، وأجعل منك الزهرة النضرة في حديقة كاليجولا.

فانكبت الفتاة على قدميه تبللهما بالدموع، لكنها لم تكن راضية بما

كتب لها على صفحة القدر، ولم ترق لها رغبة قيصر في جعلها المرأة المختارة بين نسائه.

كانت تحن إلى وطنها، ولا تلذ لها الحياة بعيدة عن ذلك الوطن! وبينما الرجال والنساء يغادرون السفينتين على إثر قيصر، إذا برسول يحمل إليهم خبرًا هامًا من روما: قيصر، لقد تمكن رجالك المخلصون من القبض على المتآمرين.

- وماذا صنعتم بهم؟
- ذبحناهم!
- كم كان عددهم؟
- تسعة رجال وامرأة.
- حسنًا صنعتم، والشعب؟
- إنه يتضرع إلى الآلهة بأن تطيل عمر قيصر، وقد ذبحنا المتآمرين تحت سور "الكابيتول" بينما الشعب يردد: "الإمبراطور يلهو!".

جلس كاليجولا على ضفاف البحيرة في مكان مرتفع، يحيط به رجال الحاشية ومن كان في السفينتين من عبيد وإماء.

ولبث الجميع ينتظرون غرق السفينتين، وبينما المياه تتدفق إلى داخلهما، وتغور "الجنتان العائمتان" رويدًا رويدًا في الماء، إذا بصوت حزين، بعيد، ينوح منشدًا:

يا بحر أمي، يا نهر أخي

يا أجمل البحار، يا أجمل الأنهر!

فانتفض قيصر، وقد عرف صوت الفتاة المصرية، وسأل قلقًا مضطربًا:

– أين هي؟ ومن أين مبعث الصوت؟

فسكت الجميع؛ لأنهم أدركوا أن الفتاة بقيت في السفينة، وآثرت الموت غرقًا على الحياة في روما، والرقود في قاع البحر على الرقود في فراش قيصر!

وضمت المياه في أحضانها سفينتي كاليجولا، بكنوزهما وأزهارهما، ومن بقي فيهما من الأحياء.

ووجم قيصر، وظل يحدق البصر في الأمواج المتكسرة على صخور الشاطئ، وكلمات الفتاة ترن في أذنيه:

يا بحر أمي، يا نهر أخي

يا أجمل البحار، يا أجمل الأنهر!

ونفرت دمعة أخرى من عينيه. وردد المتفرجون على ذلك المنظر الرائع: "الإمبراطور يلهو!".

الإسكندر والمصرية الحسناء

صور يا مسقط رأس حيرام مشيد الهياكل لسليمان الحكيم! يا موطن البحارة الشجعان، الذين ضاقت بهمتهم أسوارك فركبوا متن اليم وعمروا في ماهل الغرب قفر الديار، يا أخت المدنية وحاملة حضارة مصر إلى قصي الأمصار، يا مدينة دثرت معالم مجدها بعد عز وسلطان، فبقيت أعمدة هياكلها وحجارة قلاعها دليلًا على أن دولة المادة زائلة ودولة الفكر على ممر الدهور باقية.

صور يا فخر فينيقيا وسيدة البحار وقاهرة العجاج! هل لحجارتك الصماء أن تقص علينا أقاصيص الغرام والانتقام، وأن تفضي إلينا بأحاديث الحروب والفتوحات؟

أنت أيتها اللوحة المرمرية الملقاة هناك، التي طالما أهرقت على صفحتك البيضاء دماء البنين والبنات، يرفعها أبناء فينيقيا ذبيحة على هيكل الإله الأكبر "ملكارث". هل لك أن تخبرينا عن تلك الفتاة المصرية الحسناء، التي فرت من بلادها واحتمت وراء جدران هيكلك، فلاقاها الهلاك من حيث طلبت النجاة، ثم أنقذها الإسكندر ذو القرنين من بين مخالب الكهنة القساة القلوب؟

***

إليك أيها القارئ ما ترويه تلك اللوحة الأثرية، التي تغمرها المياه وتعبث بها الأمواج:

وصلت إلى المدينة قافلة فينيقية قادمة من مصر، وحطت رحالها أمام الهيكل الأكبر، ومعها عدد لا يحصى من الجواري والعبيد، أرسلهم تجار مصر إلى تجار صور، للمقايضة على الأثواب المزركشة والجواهر الثمينة.

ودخل أحد رجال القافلة على كاهن "ملكارث" وقال:

– أيها السيد، أحمل إليك تحية زميلك المصري كوفيس، وقد عهد إلي بمهمة شاقة أقسمت له برفات أجدادي أنني قائم بقضائها.

- أرد على صديقي كوفيس تحيته بأعطر منها وأزكى. والآن تكلم، أية مهمة عهد بها إليك أخي المصري؟
- دفع إلي فتاة صغيرة وقال: "خذها معك يا عبدومين إلى صور، وقل لأخي خادم البعل ملكارث أنني أضعها عهدة في كنفه وأمانة بين يديه؛ ليحتفظ بها في الهيكل، حتى إذا ما حان وقت عودتها إلى وطنها، طلبت إليه أن يرد الأمانة إلى أصحابها". فجئتك بالفتاة أيها السيد، وهي في الخارج مع زوجتي وابنتي.
- أدخلها ولا تبح لأحد بشيء مما قلته لي.

***

أقامت الفتاة "ميليتا" في هيكل البعل تسعة أعوام، ودخلت في

سلك الكاهنات، فكانت تسهر على إحراق البخور أمام الأصنام، وتشترك مع أخواتها الفينيقيات في أناشيدهن وتضرعاتهن إلى تموز رب الجمال، وعشتروت ربه الحب.

لكن الهدوء الذي كانت تعيش فيه في هيكل هادئ، والأمان الذي كانت تنعم به في بلاد آمنة، لم يدم عهدهما طويلًا؛ ذلك لأن الحرب حلت محل السلام بقدوم الإسكندر المقدوني إلى البلاد غازيًا، واحتلاله المدن والأمصار فاتحًا.

وصل أمام صور وأقام حولها الحصار وشدد عليها الخناق، فرأى الكهنة أن صلواتهم وتضرعاتهم لا تجدي نفعًا، فعمدوا إلى الاستعاضة عنها بكثرة الذبائح والضحايا؛ ظنًا منهم أن الآلهة –وقد أسكرتها نشوة الدماء المسفوكة– ستدفع عنهم غضب الفاتح وترد جيشه على أعقابه، وملكارث إله يحب الدماء الحمراء، ويتلذذ برؤية الأعناق تحزها يد الجلاد!

تقرر أن تصعد كل يوم على المذبح ضحية عند شروق الشمس، وأخرى في منتصف النهار، وثالثة بعد الغروب!

وكان الآباء يقدمون راضين مرتاحين بنهاتهن العذارى؛ لأن ملكارث لا يتقبل على مذبحه غيرهن في أوقات الإحن والحروب!

وسالت الدماء الزكية، وعلا البكاء والعويل، وتعاظم الخطب، وعم الحزن المدينة. والإسكندر يعاند الصوريين وآلهتهم، ويهاجم الأسوار ويحاول اقتحام الأمواج.

وجاء دور الكاهنات، ثلاث فتيات منهن يصعدن كل يوم إلى المذبح، ويسلمن أعناقهن للخناجر المقدسة.

ومضت خمسة أيام والعدو لم يتقهقر ولم يظهر عليه وهن ولا عياء،وطلعت شمس اليوم السادس، ودخلت أشعتها من خلال النافذة إلى مخدع ميليتا.

حدقت الفتاة بصرها في تلك الخيوط الصفراء، التي جاءت تنذرها بقرب الأجل، اليوم يومها. عندما ينتصف النهار، ستودع الحياة الوداع الأخير، وترتدى ثوبها الأبيض الناصع، وتذرف الدموع الأخيرة على شبابها الغض وجمالها الذي لم ينعم به رجل!

ذكرت بلادًا رأت النور فيها، وبيتًا لعبت فيه طفلة، وأبًا كان يحبها، وأما كانت تضمها بحنان إلى صدرها. ثم ارتسم أمام عينيها ذلك المنظر الفظيع، رأت أباها يعنف أمها، ثم يثور ثورانًا شديدًا، فيتناول هراوة ويهوي بها على رأس زوجته. رأت أباها القاتل، ورأت الجنود يقبضون عليه ويسوقونه إلى ساحة الإعدام، وأجهشت المسكينة بالبكاء.

يا للذكريات!

***

- ميليتا! تقدمي أيتها العذراء، فقد اختارك الإله من بين أخواتك ذبيحة طاهرة، اصعدي إلى المذبح كالحمل الوديع، وقبلي النصل المقدس الذي صنع الإله قبضته بيديه!

انتفضت الفتاة وانتابتها رعشة شديدة، ثم دارت الأشياء حولها، فرأت بقعًا حمراء في كل مكان، وصعد الدم إلى رأسها فصاحت بالقوم قائلة:

- أيها القساة الأجلاف! لست من بنات جلدتكم، ولست من عبدة آلهتكم، لن أسلم عنقي لكاهن من هؤلاء الكهنة، ولن أجثو أمام هذا الإله الذي لا يرضيه غير منظر الدماء. دعوني أخرج إلى العدو فهو أرحم منكم بضعف النساء! دعوني أرجع إلى بلادي فأخدم آلهة أقل قسوة من آلهتكم!

فدوى المكان بصيحات منكرة، وارتفعت الأصوات باللعنة على الكاهنة المجدفة!

ووثب عليها الكاهن الأعظم -ذلك الذي تعهد بالاحتفاظ بها أمانة بين يديه- فقبض على عنقها، وساقها إلى المذبح حيث سقطت على الأرض شاكية باكية.

وأحاط بها الكهنة كالذئاب، وأشاورا إلى الشعب بأن يلزم الصمت، فهدأت الأصوات.لكن صياحًا عاليًا ارتفع فجأة في خارج الهيكل، تبين القوم من خلاله عويل النساء وولولتهن. أنصت الجميع باهتين لاهثين. وما هي إلا لحظة حتى اقتحم باب الهيكل مقتحم وصاح مذعورًا:

- الأعداء الأعداء! الإسكندر في المدينة!

ماج الحاضرون دفعة واحدة طالبين النجاة من الباب، لكن الكاهن

الأكبر رفع عقيرته صائحًا بهم:

– أيها المجانين إلى أين تذهبون؟ أفي المدينة ملجأ أفضل من هذا؟ لن ينالكم ذو القرنين بضرر ما دمتم في الهيكل مقيمين.

فلم يخرج من الباب أحد، بل ظلوا جميعًا في أماكنهم، وعادوا إلى تضرعاتهم لملكارث، إله النار الملتهبة والدماء المسفوكة.

ترجل الإسكندر أمام الباب عن صهوة جواده ودخل الهيكل، فخر الحاضرون على وجوههم وسجدوا إلى الأرض ما عدا ميليتا، كانت الفتاة ملقاة على سلم المذبح تنوح وتبكى. لكنها رفعت رأسها عندما دخل الإسكندر، وارتسمت على شفتيها ابتسامة أمل ورجاء.

فاسترعت نظر الفاتح الشاب، وأقبل عليها، رائق النظر باسم الثغر، ومد إليها يده، فطبعت عليها الفتاة قبلة، وانحدرت مع القبلة دمعة حارة من عين المصرية الحسناء.

وقال الإسكندر:

– ما اسمك؟

– ميليتا.

– في أى بلد ولدتك أمك؟

– في مصر.

– ما جاء بك إلى هنا؟

- القدر الساحر!

فنادى ذو القرنين كاهن ملكارث سائلًا فقال:

- كان أبوها خادمًا لإله مصر، زنت عليه زوجته فقتلها، وسلم للجلاد جزاء جرمه. وقد أوفد إلى صديقي كوفيس هذه الفتاة لكي أجعل منها خادمة لملكارث، كفارة عن ذنوب أبيها.

- متى كان الأبناء يؤخذون بجرير الآباء؟ ومتى كان البريء يكفر عن المذنب؟

نزع القائد الكبير رداءه عن كتفيه، وألقاه على الفتاة قائلًا:

- أنت حرة طليقة يا ميليتا، وإذا أردت العودة إلى وطنك فإن كوكبة من فرساني تصحبك وتحرسك في الطريق.

***

شتت الإسكندر شمل الفرس في إفسوس، وسحق جيوش دارا الجرارة في أربيل، ودان له الشرق، وحمل إليه الأمراء والأقيال والملوك مفاتيح مدنهم، وأعلام ممالكهم وخزائن جواهرهم.وكان ذلك القائد لم يتجاوز بعد الخامسة والعشرين من عمره!

أسلمه النصر قياده، وخنع له المجد صاغرًا، فأسكرته نشوة الظفر المتواصل، وجنحت به عن طريق الصواب.سار من موقعة إلى موقعة، ومن ميدان إلى ميدان، ومن سلطنة إلى سلطنة، يسوق الأبطال أمامه، ويقيد بأغلال الرق من كانوا بالأمس يسترقون العباد، ويدمن على الخمر إدمانه على النصر.

عبثًا حاول حكماء اليونان الذين كانوا يسيرون بمعيته أن يحولوه عن الشراب، وعبثًا حاولوا أن ينقذوا تلك العبقرية العظيمة المنتجة من الضياع.

تناول ذات يوم كمية هائلة من الخمر ثم نزل إلى النهر للاستحمام، وخرج من الماء مريضًا، وبعد أيام بكته جيوشه المظفرة، وبلاده الثكلى.

وكانت الفتاة المصرية ميليتا قد تبعته من صور، تلازمه في سفره، وتقدم له الطعام في مضربه. فلما مات الإسكندر دفنت معه آمال ميليتا في الحياة!

***

رفع الجيش مضاربه، حاملًا جثة الفاتح العظيم والمليك المحبوب، وعثر الجند في خيمة صغيرة، على ضفاف النهر، على جثة المصرية الحسناء، وقد اخترق صدرها خنجر ذو قبضة ذهبية مرصعة بالجواهر، عليها رسم الإله ملكارث المتعطش دائمًا إلى الدماء!

ابنة النيل

"فالينا" فتاة مصرية حبتها الطبيعة بمنظر وسيم وجمال أخاذ، كانت جدتها في قصر "كليوباترا" أمة بين الإماء، تقدم العطور لملكة النيل، وتحرق البخور في مخدع فاتنة الرومان.

نالت حظوة في عينيمولاتها، فأعتقتها وأطلقت سبيلها، فأقامت في الإسكندرية، حيث اتخذت أحد الجنود رفيقًا لحياتها، ورزقت منه مولودًا بذلت عنايتها في تربيته، فصار جنديًا شجاعًا كأبيه الجندي الشجاع.

وهو والد "فالينا" الفتاة الحسناء، التي تبيع الماء لسكان الضواحي، فتساعد أباها بما تكتسبه من دريهمات على سد حاجات الأسرة الصغيرة.

لكن قرصان البحار ولصوص الرقيق كانوا لها بالمرصاد، يترقبونها في روحاتها وغدواتها، وقد رأوا فيها نموذجًا حيًا للجمال المصري، وسلسلة قابلة للرواج في سوق تجارتهم الخسيسة.

وانقضوا عليها ذات يوم، وهي عائدة إلى المدينة، انقضاض الذئاب الكاسرة على النعجة الضالة، فاحتملوها إلى سفينتهم، وألقوها مقيدة باكية بين النساء المقيدات الباكيات، اللواتي اختطفهن أولئك اللصوص من أكواخ الفقراء وقصور الأغنياء على السواء.

ورفعت السفينة مرساها، وأقلعت قاصدة إلى حيث تجار الرقيق في الانتظار، لعرض الأسلاب والسبايا على هواة اللحوم البشرية.

وكأني بالقدر القاسي، وقد قضى من قبل بفك قيود الجدة في قصر كليوباترا، أبى إلا أن يعيد إلى الأسر والعبودية حفيدتها المسكينة، فلوى عنق الفتاة الحرة، تحت النير الذي طالما رزحت تحته الجدة المعتوقة.

تقاذفتها المطامع والشهوات، وتناقلتها أيدي أسياد بعد أسياد، وحطت أخيرًا رحال شقائها في قصر نيرون الإمبراطور، بمدينة روما العظمى، فبيعت هناك مع ثلاثين من أخواتها، لصاحب القصر وسيد الرومان.

***

قتل نيرون "أخاه" بريتا نيكوس، وأخمد أنفاس أمه أجربينا، وتخلص من زوجته أوكتافيا، وبعث إلى عالم الأموات بخليلته بوبيا، وكان لا يلذ له عيش إلا وسط الدماء المسفوكة، والجثث المكدسة، والنيران المتصاعدة، وأنات الجرحى، وزفرات الثكالى.

وكان لا بد لذلك القلب الشارد الجموح أن يخفق بحب غريب شاذ، لم يذكر مثله تاريخ، ولم يحلم به إنسان. وهل هناك ما هو أشد غرابة، وأبعد شذوذًا، من أن يحب الرجل قردًا، ويطير لبه به هيامًا، ويضعه في منزلة دونها منزلة الأم والزوجة، والصديق والقريب.

فعل نيرون ذلك، في وقت لم تكن فيه نظرية التطور قد ظهرت بعد؛ لكي يقدم إنسان على ما أقدم عليه ذلك الإمبراطور، بحجة أن آباءنا قد سكنوا المغاور مع آباء ذلك القرد، وأن أجدادنا قد تسلقوا الأشجار مع أجداده.

فعل نيرون ذلك لأن القوة المكونة وضعت في قفص ضلوعه قلبًا

ليس كبقية القلوب، ولأن للطبيعة أحيانًا مثل هذا الهذيان، فما أكثر الوحوش البشرية في العالم، وما أكثر البهائم والزوائل التي تسمو بالفضيلة على الإنسان الناطق!

أحب إذن نيرون ذلك القرد السعيد بين القرود وشيد له القصور في عاصمة ملكه وفي ضواحيها، وأوقف على خدمته حشية كبيرة من الرجال والنساء، والشبان والبنات، وعلى حراسته كوكبة من الفرسان، وفصيلة من حملة الرماح. فذاق القرد المحبوب من حلو الحياة ما لم يذقه من قبل حيوان، ونعم بما لم ينعم به محب أو محبوب، أو أكبر من أمراء الدولة، أو غادة من فاتنات البلاط!

وشاء القدر أن يقع الاختيار على "فالينا" المصرية للإقامة في أحد قصور ذلك السيد الجديد، تقدم له العطور وتحرق له البخور، كما كانت تفعل جدتها من قبل في قصور الملوك.

***

كان الطاغية الروماني يزور قرده كل يوم مرة أو مرتين، حاملًا إليه الثمين من الهدايا، والطيب اللذيذ من الطعام والشراب. وكانت تحلوله معاقرة الخمر بين الغيد والحسان، في أحد القصور التي شيدها لذلك القرد بأموال أمته، فيضطجع على المساند المزركشة، والوسائد الحريرية، والقطائف الأرجوانية، وقرده بين ذراعيه، والحور من حوله يرقصن في ثوب حواء.

"الرجل ذو اللحية المخضبة بالحناء" هذا هو الاسم الذي كان

الناس يطلقونه على نيرون قبل أن يسموه "حارق روما"، وهو أيضًا الاسم الذي أطلق من قبل على آباء نيرون وأجداده.

وما دعوه بذى اللحية المخضبة بالحناء، إلا لأنه كان –كآبائه وأجداده أيضًا– يصبغ لحيته الصغيرة بسائل هو خلاصة الحناء، يحملونه إليه خاصة من الأقطار الشرقية الخاضعة لسلطانه. وكانت "فالينا" قد نالت رضى ذلك المولى الخطير، فكان يعهد إليها بتخضيب لحيته مرة في الأسبوع.

جلس ذات يوم يمعن النظر في الحسناء وهي تقوم بمهمتها، وأصابعها تداعب بشرة الإمبراطور، فراقه جمالها البارع، وأسكره الشباب المنبعث من جسمها البض، وانبسطت أساريره دهشة لإغفاله هذا الكنز الثمين، والشباب الزاهر.

واستيقظت سليقة الحيوان في صدر ذلك الحيوان، فطوق الجلف خصر العذراء بذراعيه الخشنتين، ودنست شفتاه الغليظتان صدرها المرمري الطاهر. لكنها انتفضت نافرة نفرة الظبية من لسعة الأفعى، وتراجعت مذعورة إلى ركن قصي في الردهة الواسعة، وجثمت هناك مرتعدة خائفة.

تبعها الإمبراطور والشرر يتطاير من عينيه، وقد ثار ثائره وهاجت شراسته أمام هذه الفتاة الجميلة الوقحة، التي تقاومه وهو السيد المطاع، وتأبى الاستسلام بين ذارعيه، وهو الذي تسعى إليه من أطراف المملكة نساء القواد وبنات الأقيال!

قبض على شعرها بيده الحديدية، وجرها إلى وسط القاعة جرًا، وهو يلهث من الغضب ويصيح:

- لعنة الآلهة عليك وعلى من جاءني بك! أجارية تعصي إرادة نيرون القوي الجبار؟

فاستجمعت الفتاة قواها أمام الخطر، وصاحب في وجه الغاصب:

- القوي الجبار يصبح ضعيفًا جبانًا إذا رفع يده على امرأة!

بهت الطاغية لردها، وتلاشت حدته، وقال بهدوء وسكون:

- حسن، انهضي إذن واتبعيني.

لكنها شعرت بالخطر يتزايد، فتذرعت بالشجاعة وأجابت:

- لقد سلبتني حريتي أيها المولى، لكنك لن تسلبني شرفي لأنني لن أمكنك منه!

وفرت من الردهة مهرولة في أروقة القصر، هائمة لا تلوي على شيء. وظل نيرون وحده، يتميز غيظًا، ثم ارتسمت على فمه ابتسامة رديئة وتمتم قائلًا:

- سوف يكون عقابك عبرة لسواك!

١٩ يوليو سنة ٦٤ للميلاد

ألسنة النيران تندلع في جهات المدينة الأربع، والدخان يتصاعد في الفضاء سحابًا كثيفًا، والقصور والمنازل والهياكل تنهار وتتساقط، وعويل

المنكوبين البائسين يمتزج بصراخ الجنود الذين عهد إليهم قيصر بإضرام النار.

تسلية أرادها نيرون فكانت!

أمر الإمبراطور بإحراق عاصمة ملكه، فاندفع الجند ينفذون أمر الإمبراطور، وذهبت المدينة الجميلة، وما حوته أحياؤها من طرائف وأرواح، وقودًا لذلك الحريق.

ودون التاريخ في سجلاته حادثًا من أفظع الحوادث التي شهدها الناس منذ القدم.

وطاف زبانية قيصر بالمشاعل متغلغلين في الأزقة والطرقات، حاملين النار إلى القصور والأكواخ والحوانيت، ورأى الناس الجند يرفعون في أحد الميادين مشعلًا ليس كغيره من المشاعل، ولم يكن ذلك المشعل الذي طاف به زبانية نيرون في المدينة المنكودة الحظ، غير جثة "فالينا" المسكينة، التي طوحت بها الطوائح، فدافعت عن عرضها وشرفها، وقضى عليها الإمبراطور بالموت حرقًا.

هكذا ماتت ابنة النيل في روما، شريفة النفس طاهرة الذيل، ضحية من ضحايا نيرون العديدة، بينما الطاغية الغليظ الكبد، ينشد أناشيد هوميروس، في شرفة قصره، على نغمات القيثارة، وعلى ضوء المدينة الملتهبة والمشاعل البشرية!

بأمر الحاكم بأمره

كانت مصر حوالى سنة ٣٩٠ هجرية تئن تحت نير من الظلم الأصم الذي يعمله الجهل وينفذه الجنون، وذلك في عهد الحاكم بأمر الله الفاطمي، وإذا شئت فسمه كما كان يسمي نفسه: الحاكم بأمره.

ولد الحاكم في القاهرة سنة ٣٧٥ هجرية، وهو سادس الخلفاء الفاطميين، وأول واحد منهم رأى النور في مصر، وبويع بالخلافة بعد والده "العزيز" سة ٣٨٦ هجرية، وهو في الثانية عشرة من عمره.

لا أحدثك عن سيرة ذلك الجبار الذي استهل حكمه بقتل مربيه ووزيره، ولا عن عهده المملوء بالمظالم؛ لأنك قد اطلعت بلا شك على ذلك كله في كتب التاريخ، ولكني أحدثك بما لم تقرأه في كتاب.

أحدثك عن سيرة "عمرة وقاسم" وقتلهما بأمر الحاكم بأمر الله. كان في مدينة الإسكندرية في ذلك العهد، رجل رث الحال معدم المال، يعيش من زراعته في كوخ حقير، بعيدًا عن ضوضاء الناس وشرورهم، ليس له من قريب أو حبيب إلا ابنته.

وكانت الفتاة "عمرة" بارعة الجمال، ممشوقة القوام، تناهز من العمر أربعة عشر ربيعًا. حبسها أبوها في كوخه، ومنعها الهواء قبل العيون؛ لا ظلمًا لها أو لاستبداد منه بها، ولكنه خشي عليها صولة الحاكم بأمر الله.

على أن أبا عمرة كان يأذن لفتاته أن تخرج في أوقات من النهار

معلومة إلى شاطئ البحر، فتبثه أحلام صباها، وتحمل أمواجه مكنونات قلبها ونفثات صدرها، توجهها إلى حبيب هي أجهل به من البحر!

ولقد طالما مزجت عمرة دمع عينها الرائق العذب بأمواه ذلك العجاج الهائج الملح، لذكرى والدتها الخالية، وشقيقها الثاوي، وقد بكتهما طفلة، وعهدتهما صغيرة، فانطبعت في ذاكرتها صورتاهما، وخير الذكريات ما نما مع العمر، وانطبع في النفس الفتية.

وكان أبوها إذا عاد من حقله يوافيها إلى متنزهها بصنارتين لكل منهما واحدة، فيصطادان الأسماك على الشاطئ، ويعودان بما سنحمن الصيد فتطبخه له فتاته.

وكان الوالد يحذر عمرة شر الرجال بل العيون الرقيبة؛ إشفاقًا منه عليها، وكان فيما قاله لها ذات يوم:

- أي عمرة المحبوبة، إنما عيون الرجال شر من صنارة الصياد، ينصبها ساقطو النفوس منهم للفتيات البريئات، فيعلقن بها كما تعلق الأسماك الصغيرة بصنارتك. فحذاريا بنية من شرهم، إنه لعظيم!

دامت الحال على هذا المنوال مدة من الزمن، أمن فيها أبو عمرة المسكين شر الحاكم وضربات القدر، ونسي أن الكدر يجيء به صفو الليالي، وظن نفسه بعيدًا عن جواسيس الحاكم وزبانيته، وما درى أنهم قد رصدوا فتاته، وأن أمرها وصفتها قد بلغا الحاكم بأمره، فاشتاق إلى رؤيتها، وعقد النية على انتزاعها من يد أبيها.

أرسل الحاكم رسله يطلب الابنة من أبيها، وما كان ليجول في خلده أن فلاحًا مسكينًا يجرؤ على رد طلبه وعصيان أمره.ولكن حب الوالد، إذا أحس بخطر يهدد من يحب، لا يخيفه ملك جبار ولا سلطان ظالم.

رفض الأب أن يسلم كنزه، وأن يحفر قبر ابنته بيده، فرد الرسل خائبين، وعمد في ليلة ليلاء إلى الهرب فرارًا من وجه الظالم، وظل يضرب في البلاد هائمًا ولهان، كطير الحمام أحس الباشق يهدد فراخه، فسالت نفسه هلعًا وطارت شعاعًا.

ولكن أبا عمرة المسكين، كان أضعف حولًا وأقصر باعًا من أن يفلت من يد ذلك الجبار العنيد، الذي كان يملأ النفوس رعبًا وهولًا، والذى كانت عيونه وأرصاده في طول البلاد وعرضها.

خرج الأب مع ابنته ذات يوم، وبعد أن طافا خارج المدينة، جلسا على مقربة من ذلك العمود الذي نصبه الرومانيون تخليدًا لذكرى مرورهم في مصر، وهناك داهمهما الجند وألقي القبض عليهما، فأعيد الشيخ إلى كوخه حيث قضى أسفًا ولوعه، واقتيدت الابنة إلى قصر الحاكم، حيث فتك الجزار القاسي بالذبيح الطاهر، وألقى به في زاوية من زوايا القصر، حيث قضت الابنة المسكينة أيامًا وليالي، تبكي كل ما يبكى عليه في هذه الحياة من شرف ضائع، وحرية مفقودة، وعيش منغص، ووالد لم تدر أميت هو فتبكيه أم حي فتعلل النفس بلقائه؟ إلى أن ترك الدمع في خديها أثرًا، وذهبت من ذلك الوجه الصبيح بهجته.

وكان على باب القصر الخارجي حارس أمين قد اصطفاه الحاكم

للسهر على ضحاياه، يدعى "قاسمًا"، فكان هذا الحارس إذا ما أظلم الليل وقف ديدبانًا يتجول تحت شرفات القصر، يرقب المارة والناظرين، حتى إذا خان القدر أحدهم فألقى نظرة على شرفة من شرفات القصر، أخمد قاسم أنفاسه لساعته!

وكان قاسم منذ قيد الذبيح البريء إلى قصر الحاكم يسمع طوال الليالي، وهو قائم على حراسته، أنينًا من غرفة عمرة، فيقطع نياط قلبه، ويترك أثرًا أليمًا في نفسه.

وكان يسمع نداءها لوالدها، ومناجاتها لروح والدتها، فيود لو أمكنه أن ينقض على ذلك القصر فيهدمه بيديه حجرًا حجرًا؛ لينقذ تلك البائسة التي لم يرها، ولكنه درى بها ضحية من ضحايا حاكمه الظالم!

بدأ قاسم بعاطفة هي شفقة ورأفة، وما لبثت تلك العاطفة أن تحولت إلى حب فوجد فغرام فهيام، أنساه واجبه وأمانته لسيده، وأطار لبه وعقله، فأمسى وأصبح يتحين الفرص ويفكر في أحبولة أو دسيسة يتمكن بها من إنقاذ تلك الفتاة ولو ببذل دمه وروحه.

***

وكان للحاكم شقيقة يعرفها التاريخ باسم "ست الملك"، ولكنها لأعجوبة من عجائب السماء، لم تكن على شيء من قسوة أخيها وظلمه وفظاظته.

وكانت ست الملك كثيرًا ما تتخلف إلى حرم أخيها، تؤاسي هذه

البائسة وتسلي تلك، فتلقي في ظلمات ذاك الجحيم بريقًا من نور السماء.

قدمت زائرة كعادتها، وخلت بعمرة المسكينة التعسة، فهالها ما رأته في وجهها من أثر الحزن العميق والشقاء الذي لا حد له ولا قرار.

قصت عليها الفتاة قصتها، والعبرات تخنقها، والزفرات تشهد للسانها بأليم ما تقاسيه من جوى ولوعة وأسى، فرقت ست الملك لها، ولم تغادرها إلا بعد أن عقدت العزيمة على تسهيل سبيل الفرار لها، وبعد أن وعدتها بذلك تركتها مؤمنة راجية.

وفكرت ست الملك في الطريقة المثلى لإنقاذ فتاتها، فلم تر سبيلًا آمن وأضمن للنجاح من أن ترشو الحارس الموكل بحراسة القصر ليلًا.

دعت إليها قاسمًا، وأفشت إليه بما يجول في صدرها، بعد أن بذلت له الوعود الخلابة، فارتمى قاسم على قدمي مولاته يكسب دموع الفرح والغبطة، وأفضى إليها بما علق في نفسه من حب الفتاة حبًا لحمته الشفقة وسداه الهيام والجنون.

وكان الحاكم بأمر الله يكره أخته ست الملك ولا يتردد في الكيد لها، وقد اتهمها يومًا بتهمة شنعاء أوقدت في صدرها نار البغض، وأثارت في نفسها رغبة الانتقام، فسعت إليه بمكر ودهاء، وبدأت تنفذ خطتها بمساعدة ضحايا أخيها على الإفلات من يده.

وكان ذلك من حسن حظ عمرة التي استفادت من العداء القائم بين

الأخت وأخيها.فبعد أن رسمت ست الملك خطة الفرار، وأطلعت الحارس عليها، وأعدت لها العدة، انسلت في ليلة ظلماء إلى غرفة عمرة وأجلت من النافذة إلى الأرض، على سلم كان قاسم قد حاكه بيده، فتلقاها الحارس بين ذراعيه، واحتملها جاريًا في ظلام ذلك الليل إلى قارب كان ينتظرهما على النيل. وهكذا انتقمت الأخت من أخيها، وفاز الحبيب بحبيبته، وأفلتت عمرة من الأسر.

بلغ قاسم وعمرة الإسكندرية عملًا بإرادة الفتاة، التي كانت تذوب شوقًا إلى لقاء أبيها غير حاسبة حسابًا لما ينتظرها به القدر.

بلغا الكوخ فإذا به قد تداعت جدرانه، وإذا به قد أقفر من ساكنيه. فبكت عمرة بكاء مرًا، وسقت قبر أبيها بما تبقى من الدموع في عينيها الداميتين، وانصرفت بما تبقى في قلبها الحزين من العواطف إلى حب منقذها قاسم، ونامت آمنة شر ما يخبئه لها القدر، وظنت نفسها البريئة أن السماء قد رأفت بها، وأنها قد اكتفت بما نالها من شقاء وبؤس وعذاب أليم!

ثار ثائر الحاكم بأمر الله، فأرغى وأزبد، وبدأ يصب جام غضبه ونقمته على حراسه وجواريه، فخنق منهم ومنهن عشرات، وألقى في النيل عشرات أخر، وبث رسله وجنده يبحثون عن الفارين، واعدًا متوعدًا.

وخافت ست الملك أن يلحق بقاسم وعمرة أذى، وأن تعاد للفتاة إلى سجنها، ويحكم على حبيبها بالموت شر ميتة، فأرسلت أيضًا رسلها وجواسيسها للبحث عن العاشقين، وإعداد العدة لفرارها خارج القطر.

فكان نضال عنيف بين الأخ والأخت: الحاكم يسعى إلى إهلاك نفسين، وأخت الحاكم تسعى إلى إنقاذهما!

جلس الحبيبان على صخرة من صخور شاطئ البحر في الإسكندرية، حيث أقامت اليوم يد العمارة فنادق ومنازل ومصانع، يتبادلان غرامهما النامي، ويتساقيان أحاديث الحب، ويتطاعمان قبلات الغرام، وأمامهما البحر يوحي إليهما أنهما حران طليقان، ويوسوس لقلبيهما أن يد الظلم بعيدة عن أن تنالهما.

سكرا بنشوة الغرام، وأسدل الحب بينهما وبين العالم ستارًا كثيفًا، فلم يفطنا إلى الخطر الداهم، ولم يفكرا في أن السعادة لا تدوم إلا إذا أحاط بها سياج من الحذر والتكتم والخفاء.

أجل، هى ساعة نسيا فيها أنهما مهدور دمهما، وأن لهما عدوًا يرتجف لذكر اسمه وادي النيل وما دونه من البلاد، وأن ذلك العدو العنيد لن يهدأ له بال إلا بعد أن يتم له الاقتصاص منهما والقضاء على هنائهما.

***

كان الحبيبان على شاطئ البحر، وإذا بجند الحاكم قد أحاطوا بهما إحاطة السوار بالمعصم، وما هى إلا لحظة حتى أثقلا بالقيود والأغلال، وجرا إلى قبر مظلم هو سجن من سجون تلك الأيام السود.

وزفت إلى الحاكم ابن العزيز بشرى القبض على الفارين المجرمين،

وقص عليه أنهما كانا يتشاكيان الحب على صخرة على شاطئ البحر، فضحك ضحكة نمت عما في نفسه من حفيظة ومكر.

ثم أومأ إلى رسله قائلًا:

- قولوا للجند وللجلادين ألا يمسوا الحبيبين بأذى، وأن يقودوهما حرين طليقين إلى حيث كانا يتشاكيان ويتداعبان، ثم يحفروا لهما حفيرة ويدفنوهما ثم حيين!

***

إذا قصدت أيها القارئ إلى مدينة الإسكندرية، فسر حتى الصخور المشرفة على مدخل الميناء الشرقي، وسل خبيرًا أن يهديك إلى محلة "طابية السلسلة"، وإذا بلغت ذلك المكان، فاعلم أن أسس ما تراه من الأبنية مشيدًا مكان تلك الطابية، هي قائمة على بقايا الحبيبين اللذين ذهبت بهما فتيين يد الظلم، ظلم الحاكم بن العزيز الفاطمي، أو الحاكم بأمر الله، أو الحاكم بأمره كما كان يلقب نفسه!

وقد تآمرت ست الملك على أخيها مع أعدائه الكثيرين، فعهدت إلى صنيعها ابن دواس بقتله، فطلع عليه بشرذمة من رجاله وأعوانه، وقتلوه شر قتلة، وأخفوا جثته في القرافة.

وكان ذلك سنة ٤١١ للهجرة.

أنطونيو والعرافة

بلغت فلول الجيش الروماني سواحل فينيقيا، ونصبت مضاربها بأمر من قائدها على تلك الرمال الممتدة على شاطئ البحر الأبيض، وتنفس الجنود الصعداء ظنًا منهم أن العناء قد ولى، وأن الشقاء سيتبعه هناء، وأن إله الحرب سيبتسم لهم بعد أن ظل مدة من الزمن معرضًا عنهم، كالح الوجه في وجوههم، ممسكًا يده عن أيديهم.

وترك قائد الرومانيين "مارك أنطونيو" جيشه على ساحل البحر، واصطحب معه رفيقه ونجيه "هيتيو" المصري، وابتعد عن ضوضاء الخيام وضجة الجنود، متجهًا إلى ذلك النتوء البارز فوق الماء، المرتفع صعدًا في الفضاء، المشرف على البحر والنهر معًا، عند ذلك المصب الذي اجتازته من قبل جيوش الغزاة الفاتحين، إما منتصرة هاتفة، وإما مهزومة صامتة.

يعرف ذلك النهر اليوم بنهر الكلب، أما الأقدمون فإنهم كانوا يسمونه "ليقوس" أو نهر الذئب.

كان مارك أنطونيو قد اجتازه بجيشه قبل ذلك اليوم بشهور، قاصدًا إلى الأقطار الأسيوية المتوسطة؛ لإخضاع الشعوب والقبائل الضاربة هناك، وبسط سلطانه وسلطان صديقته وحليفته كليوباترا"ملكة مصر الجميلة الفاتنة" على الممالك والإمارات التابعة للإمبراطورية الرومانية الشرقية.

لكن السيتيين والماديين وحلفاءهم من سكان أرمينيا وفارس وما بين النهرين، قابلوا الرومانيين بالتمرد والعصيان، ونازلوهم في ميادين القتال، وفتكوا بهم فتكًا ذريعًا، فعاد القائد الروماني الشاب أدراجه، ويمم شطر البحر الأبيض؛ طالبًا في سواحله وجباله نجاة ومأمنًا، معللًا نفسه بوصول النجدة التي وعدته بها كليوباترا، وتعهدت بإرسالها بحرًا وعلى جناح السرعة.

كان عدد الذين اجتاحوا البلاد في طريقهم إلى الشرق، بقيادة أنطونيو، أكثر من خمسين ألف فارس وراجل، فلم يعد منهم إلى الساحل الفينيقي غير عشرة آلاف جندي، جميعهم حفاة عراة أنهكهم الجوع والمرض والعناء.

أولئك هم الأبطال والصناديد الذين تحولوا بعد الهزيمة إلى خيالات وأشباح، يخيفهم هزيم الرعود القاصفة في أعالي الجبال، ويرعبهم صفير الرياح في الغابات، ويلقي الذعر في نفوسهم هدير البحر وتلاطم الأمواج.

ذلك لأن تلك الأصوات جميعها تعيد إلى أذهانهم مشاهد الحرب الدموية التي خاضوا غمارهم وعادوا منها خاسرين، وتذكرهم بأولئك "السيتيين" الذين صمدوا لهم في الشرق وردوهم على أعقابهم، والذين يعيشون في سهول بلادهم على ظهور الجياد، ويرشقون النبال بمهارة لا تعد مهارة الرومانيين بجانبها شيئًا يذكر، ويصيبون الهدف بسهامهم دون أن ينظروا إليه!

وبينما الجنود يتحدثون عن الوقائع التي نجوا منها بمعجزة، ويرفعون إلى آلهتهم آيات الشكر والعبودية، كان قائدهم يصعد الجبل على مهل، ويضرب أخماسًا بأسداس، ويفكر في خطة يرسمها للخروج من المأزق الذي زج بنفسه فيه.

ظل يمشي إلى الأمام غير حاسب للوقت حسابًا، تارة يسير على سفح الجبل، وتارة يتسلق صخوره، حتى أدركه التعب، فجلس على الأرض، ودعا رفيقه إلى الجلوس بجانبه، ثم أخذ رأسه بين يديه، ودفع إلى الوراء شعوره المسترسلة على كتفيه، وجعل يحدق البصر في ذلك الخصم الممتد أمامه، لعله يرى على صفحته، هناك في الأفق البعيد، مراكب كليوباترا المصرية مسرعة إليه، ناشرة أجنحتها السمراء، حاملة تحية الحبيبة والنجدة المنتظرة.

لكن عينه لم تأخذ على سطح المياه الزرقاء، غير الزبد الطافي عليها، وخيالات بيضاء، ينخدع بها النظر لحظة، ثم يتضح له أنها طيور بحرية تسبح في الفضاء وتداعب رؤوس الأمواج.

مرت ساعات على مارك أنطونيو وهو على هذه الحالة، مكتئب النفس، شارد الفكر، تائه البصر. لكنه صحا فجأة على صوت غراب ينعق فوق رأسه على شجيرة يابسة، غضبت عليها الطبيعة فأوجدتها بين تلك الصخور القائمة والحجارة الغبراء.

رفع مارك أنطونيو رأسه، والتفت فلم يجد رفيقه جالسًا بجانبه، بل رآه واقفًا على بعد خطوات منه، وقد ولاه ظهره، واقترب من صخرة

بارزة، وجعل ينظر في صفحتها، جامدًا لا يأتي بحركة.

نهض أنطونيو وسار إليه، ثم وقف معه جنبًا إلى جنب، شاخص البصر، وقد جذبته تلك الصخرة وسحرته صفحتها الصامتة الناطقة.

هنا في هذا الوادي، على ضفاف هذا النهر الصغير، أمام الشاطئ الممتد على مرمى البصر، في سفح هذا الجبل الشاهق، أمام تلك الصخور الجرداء، مرت من قبل جيش أنطونيو جيوش، وذاقت كما ذاق جنوده لذة النصر ومرارة الفشل!

وأولئك القواد العظام والأبطال البواسل، الذين دوخوا العالم وملؤوه ضجيجًا، قد ذهبوا إلى حيث لا بد للناس من الذهاب، وانتقلوا إلى عالم غير هذا العالم، تاركين وراءهم من تلك الحوادث التي أثاروها، والحروب التي أضرموا نارها، والممالك التي اجتاحوا ديارها، والتيجان التي أسقطوها عن رؤوس أصحابها ووضعوها على رؤوسهم، والغزوات البعيدة التي قاموا بها= الذكرى فقط، وأسماء منقوشة على الصخور الصماء، تنبئ الأحقاب من بعدهم بتلك الضوضاء التي أثارها مرور الفاتحين في هذا العالم!

فعلى تلك الصخرة التي وقف أمامها أنطونيو مع رفيقه المصري، صامتين مأخوذين، نقش رمسيس الثاني فرعون مصر العظيم، رسمه ولقبه واسمه، قبل ذلك اليوم بألف وخمسمئة سنة، عندما تدفقت جيوشه الجرارة على الشرق، وأخضعت شعوبه لسلطان الدولة المصرية.

حنى القائد الروماني رأسه احترامًا وإجلالًا أمام رسم ذلك الفاتح

العظيم، وسأل قائلًا:

- هل أترك في هذه البلاد بعد رحيلي ذكرى بطل منصور أم قائد مهزوم؟

وابتعد عن تلك الصخرة فإذا به أمام ثانية فثالثة، تحدثانه عن سلمانصر وسنحاريب ملكي الآشوريين، وقد نقشا اسميهما أيضًا على تلك الصخور، في ذلك الوعر الذي مرت فيه جحافلهم، قبل ذلك اليوم بسبعة قرون.

فحنى القائد الروماني رأسه من جديد أمام البطلين العظيمين، وقامت فيه الهواجس والذكريات، ومرت أمام عينيه تلك الصحائف التي خطها في سجل التاريخ، والأعمال التي قام بها، والتى يجهل الحاتمة التي تسير إليها.

عادت به الذاكرة إلى ذلك اليوم الذي التقى فيه للمرة الأولى بالملكة الشابة الساحرة، كليوباترا، واليوم الذي شعر فيه بنيران الغرام تتأجج في صدره، فأعرض عن زوجته أوكتافيا، أخت صديقه أوكتاف، وألقى بنفسه بين ذراعي ملكة مصر، وأصبح لها عبدًا خاضعًا ذليلًا.

واليوم الذي أعلن فيه على رؤوس الملأ أنه يطلق زوجته، ويعيدها إلى أهلها، ويتخذ بدلًا منها، زوجة له، تلك التي استولت على مشاعره، وسلبت لبه، وقيدت قلبه بسلاسل الحب.

واليوم الذي وقف فيه أمام الجموع المحتشدة في ملهى

الإسكندرية، ونادى بكليوباترا ملكة على مصر وقبرص وأفريقيا وسوريا، بالاشتراك مع "قيصرون" ابنها من "يوليوس قيصر"، ونادى في الوقت نفسه بولديه من كليوباترا ملكين على أرمينيا ومادى وفينيقيا وليبيا وكيليكيا.

واليوم الذي أعلنت فيه روما أنها تطرد من حظيرتها ذلك الابن العاق والقائد الخائن، وتعتبره عدوًا أشد خطرًا عليها من كل عدو، وخصمًا يجب التخلص منه والقضاء عليه قبل كل خصم.

عادت الذاكرة بمارك أنطونيو إلى جميع تلك الحوادث الجسام، فرأى نفسه وحيدًا، سائرًا في طريق مظلم، تحف به المخاطر من كل صوب، ولا تبدو لعينيه بارقة أمل في النصر الذي كان يرجوه ويسعى إليه.

وبينما هو على تلك الحالة، إذا بوقع أقدام يطرق أذنيه، فالتفت إلى مبعث ذلك الصوت، ورأى امرأة تصعد الجبل نحوه، متكئة على عصاها، تدفع الحصى أمامها بقدميها العاريتين.

وصلت إلى المكان الذي كان القائد الروماني واقفًا فيه مع صديقه، فرفعت نظرها إليهما، وبعد سكوت قصير أرسلت في الفضاء قهقهة عالية، رددها الصدى في الوادي من صخر إلى صخر.

ثم قالت:

- أنطونيو! ما جاء بك إلى هذا المكان الموحش؟ لعلك تريد إزعاج الثعابين في أوكارها، والنسور في وكناتها، والثعالب في جحورها، بعد

أن أزعجت روما وأثرت الحروب في الشرق والغرب!

نظر القائد مندهشًا إلى تلك المراة التي لا يعرفها، والتى نادته باسمه وخاطبته بتلك الجرأة الغريبة، ولم يوجه إليها كلامًا، بل التفت إلى رفيقه قائلًا:

- أتعرف هذه العجوز يا هيتيو؟

فأجابه المصرى:

- كلا، لا أعرفها!

لكن المرأة صاحت في وجهه:

- كيف لا تعرفني أيها النمام المنافق؟ أنسيت أم تناسيت ذلك العمل الشائن الذي أقدمت عليه، عندما أردت أن تتخلص من وحيدي، فوشيت به أمام هذا الروماني فأمر بقتله، وتم لك بتلك الوشاية الانتقام الذي سعيت إليه؟

تضاعفت دهشة أنطونيو، ولم يدرك من كلام المرأة حقيقة الأمر، فسألها:

- من هو ابنك يا امرأة؟ ومن أنت؟ ومن جاء بك إلى هنا؟ وأى لوم توجهين إلى صديقي ورفيقي هيتيو؟

فأجابت العجوز:

- اصغ إلي يا أنطونيو، إنني لا أحمل موجدة عليك؛ لأنك كنت

مخدوعًا،والمخدوع لا يؤاخذ على عمل يأتيه أو ذنب يقترفه، لكنني حانقة على هذا الذي تسميه صديقك ورفيقك. فاسمع ما أقصه عليك واحكم بيننا. إن المرأة التي تراها أمامك الآن عرافة مصرية، قضت أربعين سنة متنقلة من هيكل إلى هيكل، ومن معبد إلى معبد، ومن بلدة إلى بلدة، في مصر وفينيقيا. وقد ذاع صيتها في طول البلاد وعرضها، وكان الناس يهرعون إليها من كل ناحية؛ لكي يستطلعوا بواسطتها ما خفي عنهم من حوادث الماضي والحاضر، وما يخبئه لهم الغيب في المستقبل. وكان لي ولد وحيد، أحبه وأرعاه بعنايتي، وأرشده إلى السبل السوية، وأبثه المبادئ القويمة، وأفضي إليه بأسرار العلوم التي ورثتها عن آبائي وأجدادي؛ لكي يصبح في الغد عرافًا مثلي ومثلهم، ويسير على الطريق الذي ساروا عليه جميعًا. وقد حدث ذات يوم أن علق ولدي بحب فتاة طاهرة نبيلة، فبادلته الحب، وتعاهد الاثنان على الزواج. لكن خصمًا لم يحسب له ولدي حسابًا قام يزاحمه في حبه وينازعه حبيبته. وذلك الخصم هو هذا الرجل الذي يصحبك يا أنطونيو، فإنه كان يطمع في أموال الفتاة وجاهها، فجعل يكيد لولدي في الخفاء، وينصب له الحبائل ويدس له الدسائس، حتى تم له ما أراد من وقيعة وضرر.

فقاطعها أنطونيو سائلًا رفيقه:

- أصحيح هذا يا هيتيو؟

لم يجب الشاب، فقالت المرأة:

- إن سكوته أيها القائد لبرهان على صحة ما أقول. وهل في استطاعته أن يكذبني، وأنا لا أفضي إليك إلا بالحقيقة؟
- وماذا حدث بعد ذلك؟
- حدث أن جاءك هذا الرجل، وكان يقيم في قصرك بالإسكندرية، ويطلعك على ما يجري في المجالس والأندية المصرية، وقال لك إن مؤامرة دنيئة تدبر في الخفاء لاغتيالك، وإن القائمين بها جماعة من المصريين الذي اشتراهم أعداؤك بالمال والوعود.
- هذا صحيح. لكن أولئك الذين دبروا تلك المكيدة لم يقعوا في قبضتي!
- نعم؛ لأن المكيدة التي أطلعك عليها هذا الخائن لم تكن غير وليدة مخيلته؛ فقد ادعى ذلك الادعاء، وكذب عليك وخدعك، وجعلك تعتقد أن شابًا من المقربين إلى الملكة، القائمين بخدمتها، على اتفاق مع المتآمرين.
- هذا صحيح أيضًا، وقد أمرت بإعدام ذلك الشاب، فأعدم أمامي، وعلى مرأى من الشعب.
- ذلك الشهيد هو ولدي أيها القائد! ولدي الذي كان يصيح عبثًا أنه بريء، وأنه لم يرتكب جرمًا يؤاخذ عليه، ويستحق من أجله الإعدام. لكنك لم تصغِ إليه، ولم تعر كلامه اهتمامًا؛ لأن هيتيو هذا جعلك تعتقد أيضًا أن ذلك الفتى المسكين كان يتطلع إلى أمنية أخرى،

ويعلل النفس بتحقيقها.

فانتفض أنطونيو وقال:

- لا تذكريني بذلك يا امرأة!

لكن العرافة ظلت مستطردة في حديثها:

- جعلك هذا الرجل تعتقد أن ولدي يحب الملكة، وأن الملكة تعطف عليه وتبادله الحب!

- هذا صحيح!

- لكنه كان كاذبًا في دعواه؛ فإن ولدي لم يحب غير تلك الفتاة التي تعاهد معها على الزواج، والتي أراد صديقك هذا أن ينتزعها منه. وقد أعمى الغرام وأعمت الغيرة بصرك وبصيرتك، فلم تتحقق مما أفضى به إليك هذا النمام الواشي، فأصدرت أمرك بقتل البريء فقتل! وقد غادرت البلاد منذ ذلك الوقت، وحملتني قدماي إلى هذا المكان، حيث أقيم في مغارة مظلمة، مع الوحوش والطيور والحشرات. وإنني أجدها يا أنطونيو أقل قسوة من الإنسان، وأبعد نظرًا، وأكثر عدلًا وإنصافًا! والآن، اسمع ما تقوله لك العرافة التي قتلت ولدها انقيادًا لوشاية الخونة المنافقين: إن الملكة كليواترا ليست بالمرأة التي تظن، هي نطفة من نيران المكر والشر، هي رسول الأرواح الخبيثة في هذا العالم، لقد كانت شؤمًا على القائد بومبيوس، وشؤمًا على قيصر العظيم، وشؤمًا على أبويها، وشؤمًا على

بلادها التي زجتها في غمرات الحروب. وستكون شؤمًا عليك يا أنطونيو! اعلم أنك لن تعرف الهناء بعد الآن، ولن تذوق الراحة، ولن يكلل النجاح مساعيك، ولن يضحك النصر لأعلامك، ولن ترى وطنك! ستموت ميتة شنيعة، منبوذًا من أهلك وأصدقائك وأبناء قومك ووطنك، ومن المرأة التي تحبها والتى ضحيت بكل شئ في سبيلها.إننى أتنبأ لك بالمصائب والويلات؛ لأنك أبعدت عن نفسك بيدك ذلك الطالع الحسن، الذي جعل المستقبل يبتسم لك في بادئ الأمر، وانقدت لامرأة شريرة تنقاد من جهتها للملذات والشهوات. فقل الوداع للوطن وللنصر وللنجاح وللراحة وللهناء! وقل الوداع للحياة يا مارك أنطونيو!

حاول القائد أن يسكت المرأة، لكن لسانه أبى أن يطيعه، فعقد عن النطق فجأة، وخيل إليه أن تلك العجوز الشمطاء، التي أمطرته ذلك الوابل من التنبؤات السيئة، إنما هي رسولة الآلهة، بعثت بها "عشتروت" الفينيقية من أعالي تلك الجبال أو من جوف ذلك اليم؛ لكي تحذره من عاقبة الأعمال التي اندفع فيها، لعله يستطيع أن يتخذ للغد حيطته، ويعد للمستقبل عدته.

وقبل أن يلم أنطونيو شتات أفكاره الشاردة، ويعيد إلى نفسه الهدوء، صاحت به المرأة من جديد قائلة:

- ستكفر عن ذنوبك وآثامك يا أنطونيو، وتموت دون أن يرتفع صوت بالبكاء عليك، أو تذرف على قبرك دمعة صديق. أما رفيقك هذا

فقد أزفت ساعته، وسعى إلى حتفه بنفسه.

قالت هذا، وانقضت على "هيتيو" المصري، وضربته بخنجر كانت تخبئه في طيات ثوبها الخلق، فسقط على الأرض، وتفجرت الدماء من صدره، وقد اخترقه الخنجر ومزق القلب وقطع العروق.

وهدأت ثورة العرافة، فألقت من يدها السلاح الملطخ بالدم، والتفتت إلى أنطونيو الذي لم يتحرك للدفاع عن رفيقه، وقالت:

- ما ظننت في وقت من الأوقات أن الآلهة تسهر علي وتخدم انتقامي إلى هذا الحد، وما علمت أنها ستقود خطواتك إلى هذا المكان، ومعك الرجل الذي طالما عللت النفس بقتله. إن المجرم الأثيم يا أنطونيو لا بد أن يلاقي العقاب على ما اقترفت يداه، الوداع أيها القائد العاشق الأعمى! تذكر دائمًا ما قالته لك العرافة المصرية في جبال فينيقيا، واترك جثة هذا الخائن في مكانها، فإنها لوليمة فاخرة أقيمها الليلة للضباع والذئاب!

وتناولت العرافة عصاها، وردت على وجهها طرف ردائها، وراحت في سبيلها، تدوس الحصى بقدميها العاريتين، صاعدة في الجبل بين الصخور، كأنه لم يحدث حادث ولم تقع مأساة.

وظل مارك أنطونيو يتبعها بالنظر، إلى أن توارت وراء الصخور، فعاد القائد الروماني وحده إلى معسكر الجند، وقد تقطب جبينه، واكفهر وجهه، وبدا عليه التعب.

تحققت نبوءة العرافة المصرية، فقد مني مارك أنطونيو بالخسائر المتوالية، وانهزم جنوده في كل مكان، وانفض من حوله الأصدقاء والأنصار، ولم يجد عزاء عما حل به من كوارث إلا في أحضان الموت.

أراد أن ينتحر فخانته الشجاعة،وأراد أن يلقى الموت فتحاشاه الموت في الميادين، لكن صديقًا أشفق عليه فطعنه في صدره الطعنة القاضية، فمات بعيدًا عن كليوباترا، وهو الذي كان يقول لها: "لست أرغب بعد الآن إلا في أمنية واحدة، وهي أن أموت بين ذراعيك يا حبيبتي".

وماتت كليوباترا أيضًا بعيدة عنه، من لسعة الحية المسمومة، وهي التي كانت تقول له: "لست أرغب بعد الآن إلا في أمنية واحدة، وهي أن نعيش طويلًا، وأن نموت بعد ذلك ونحن في فراشنا، متعانقين دون أن نشعر بعذاب ونحسن بألم".

وكان ذلك في سنة ٣٠ قبل الميلاد.

زينب وعبد الملك

ابتعدت السفينة خلسة عن الشواطئ المصرية، يسترها الظلام الحالك، ومخرت المياه متجهة إلى عرض البحر، حاملة مستقبل فرنسا وأمان نابليون بونابرت.

نادى القائد ربان السفينة وقال له:

– لقد وضعت حياتي ومستقبل فرنسا بين يديك، فإما أن تنسل بفسينتك بين مراكب الإنجليز التي تجوب البحار في طلبنا، لكي تقطع علينا خط الرجعة إلى بلادنا، فتقدم للوطن خدمة يسجلها لك التاريخ على صفحاته. وإما أن تقع بين أيديهم، فتقضي علينا وعلى الوطن معًا!

فبسط الربان ذراعه مقسمًا وقال:

– سأفلت منهم يا جنرال، أقسم لك بشرفي وأولادي!

– شكرًا لك.

وصافحه بونابرت، ثم اتكأ على حاجز السفينة، وشخص ببصره إلى النجم الساطع في الفضاء اللانهائي، ذلك النجم الذي كان الفاتح يسميه نجمه، والذى اتخذه رمزًا لأمانيه ومطامعه.

مرت ثلاثة أيام والسفينة تفلت كل يوم بأعجوبة من المراكب

الإنجليزية، فنادى القائد ربان السفينة ثانية، في صباح اليوم الرابع، وهنأه على براعته ومهارته، وأكد له من جديد أنه يثق به ويضع حياته بين يديه.

وبينما بونابرت يخاطب الربان، إذا بضجة تتصاعد من جوف السفينة، فانتفض القائد وسأل ما الخبر؟ وأسرع الربان إلى مصدر الجلبة، ثم عاد يحيط به بحارة السفينة، ومعهم شاب غريب، أوثقت يداه وراء ظهره، والدم يسيل بغزارة من جرح في خده الأيمن.

وخاطب الربان القائد العام قائلًا:

- سيدى الجنرال. قبض البحارة على هذا الرجل متلبسًا بجريمة شنعاء، فقد وثب على الجندي "فورتين" من رجال الحرس، وطعنه بخنجره أربع طعنات في صدره وكتفه، فسقط المسكين صريعًا، وأسرع البحارة إلى الإحاطة بالمجرم الأثيم، الذي حاول أن يقاوم مهددًا بالقتل كل من يقترب منه. لكنهم تمكنوا من انتزاع الخنجر من يده، فأصيب بجرح في خده أثناء العراك، وأظنه لا يفهم لغتنا، ويتكلم العربية فقط.

اقترب القائد من الشاب الذي كان هادئًا ساكنًا، كمن يشعر بارتياح وطمأنينة، بعد القيام بعمل كان يظنه واجبًا عليه، وخاطبه بالفرنسية فلم يجب، فأمر بونابرت بإحضار مترجم من رجال الحاشية، ليعلم حقيقة الأمر، وليكشف الستار عن سر ذلك القاتل الغريب.

جاء المترجم وألقى أسئلته على الرجل، فلم يمانع في الإجابة:

- ما اسمك؟
- عبد الملك شهيب.
- من أيالبلاد أنت؟
- من مدينة غزة، لكنني استوطنت القاهرة منذ أربع سنوات.
- وما جاء بك إلى هنا؟
- الأخذ بالثأر!
- ممن؟
- من النذل الذي قتلته!
- وهل أساء إليك هذا الرجل؟
- لو لم يسئ إلى لما تعقبته حتى قتلته!
- وماذا فعل؟

فسكت الرجل واعترته رعشة شديدة، ثم نظر إلى الأرض واغرورقت عيناه بالدموع. لكن بونابرت أشار إلى المترجم بالاستمرار في السؤال:

- قل لنا ماذا فعل ذلك الجندي حتى استبحت لنفسك حق الاقتصاص منه؟

فرفع الرجل رأسه، ونظر إلى من كانوا يحيطون به من قواد وجنود، فقرأ على وجوههم ما تضمره له قلوبهم منشر وبغض وكره، ثم ارتسمت

على شفتيه ابتسامة مرة وقال:

- لو ارتكب رجل منا نحو أحدكم جريمة كالتي ارتكبها ذلك اللعين نحوي، لانتقمتم لابن وطنكم من البلاد كلها، ولأمطرتم علينا وابل رصاصكم وقنابلكم، أو أعملتم فينا السيوف والرماح، واستبحتم لأنفسكم انتقامًا أروع من الانتقام الذي نفذته في غريمي! إني عالم بمصيري الذي ينتظرني، ولكن لا بد لي قبل أن أموت من صب لعناتي على هؤلاء الأقوام.

فقاطعه المترجم ساخطًا:

- لا تسترسل في غضبك يا رجل، واكتف بذكر الدواعي التي دفعتك إلى القتل.

- حسنًا، كنت أسكن منزلًا صغيرًا على مقربة من تل العقارب في مصر، مع أختي، وهي أصغر مني سنًا. وكنت أتغيب في النهار، وأعود إلى البيت بعد صلاة الغروب. ففي ذات ليلة عدت إلى منزلي، فوجدت فيه الجندي الذي قتلته، ولا تسل عن الجرم الذي اقترفه، فإنه في نظر أبناء قومي، أفظع جرم يرتكبه إنسان، يا ليته ترك أختي جثة هامدة، لكنت إذن طرحتها على قمة التل طعمة للجوارح، بدلًا من الاحتفاظ بها ملطخة بالعار، مدنسة بملامسة ذلك الحيوان النجس! نعم، حاولت أن أقبض على عنقه، وأقتص منه في ذلك المساء المشؤوم، لكن الجبان فر هاربًا، وأفلت من يدي.

- وكيف علمت بمقره بعد ذلك؟

- تركت أعمالي، ووقفت نفسى منذ ذلك اليوم مراقبًا للجنود في روحاتهم وغدواتهم، وأقسمت أمام الله وأمام أختي أن أنتقم من الفاسق الأثيم، ولو بذلت حياتي في سبيل ذلك الانتقام. أما طريق الوصول إليه، وصعودي خفية إلى هذه السفينة، فهذا ما لا شأن لكم به، لقد تم لي ما أردت، فأخذت بثأري، وغسلت بدم المجرم العار الذي ألحقه بي وبأسرتي. والآن، ليفعل بي قائدكم ما يريد، فلا يهمني شيء، ولا أطلب منكم رحمة ولا شفقة، القاتل يقتل، لا أجهل ذلك، وحياتي بين أيديكم، فهي لكم، خذوها إذا شئتم!

***

في صباح يوم الأربعاء ١٨ يونيو سنة ١٨٠٠، أي في التاسع والعشرين من شهر بريريال سنة ٨ للجمهورية الفرنسية، الموافق للسادس والعشرين من شهر محرم سنة ١٢١٥ هجرية، أعدم عبد الملك شعيب رميًا بالرصاص، في ثغر طولون الفرنسي، بتهمة القتل بتعمد، وفي نفس ذلك اليوم، نفذ حكم الإعدام في كل من سليمان الحلبي، قاتل الجنرال كليبر، قائد القوات الفرنسية في مصر، وشركائه في التآمر على اغتيال ذلك القائد، وهم: عبد القادر الغزي، ومحمد الغزي، وعبد الله الغزي، والسيد أحمد الوالي.

ولم يكن المتهم الأخير "السيد أحمد الوالي" إلا ابن خال الشاب عبد الملك شهيب، فكأن الأقدار شاءت أن يعدم الاثنان في يوم واحد،

وأن تكون التهمة الموجهة إليهما واحدة، وأن ينفذ الحكم في السيد أحمد الوالي في تل العقارب.

فهناك، فوق ذلك التل المشرف على منزل عبد الملك وأخته المسكينة، سقط رأس أحمد الوالي تحت سيف الجلاد، وهناك أحرقت جثته، بينما كان ابن عمته عبد الملك يعدم رميًا بالرصاص، في مدينة طولون.

***

وظلت زينب "أخت عبد الملك وفريسة الجندي فورتين" مقيمة في ذلك المنزل الملعون، تندب حظها، وتذرف الدموع السخينة على مقتل ابن خالها، وتعلل النفس بلقاء أخيها عائدًا من رحلته، حاملًا إليها خبر انتقامه من مغتصب عفافها وسالب شرفها.

انتظرت طويلًا ولم يعد ذلك الأخ المحبوب، فتسرب القنوط إلى نفسها، وفكرت في الانتحار تخلصًا من حياتها التعسة.

وبينما هي على هذه الحالة، تتقاذفها الهواجس والشجون، ينعشها الأمل تارة، ويستولي عليها اليأس طورًا، إذا بجندي فرنسي يتقرب من المنزل وبصحبته ثلاثة رجال، عرفت بينهم زينب الشيخ سليمان الفيومي صديق أخيها عبد الملك.

خفق قلب الفتاة وشعرت أن القادمين يحملون إليها خبرًا، فأسرعت إليهم، وسألت الرجل الذي عرفت فيه صديق أخيها:

- عمن تبحثون؟
- عنك يا زينب.
- ما وراءكم؟
- إن هذا الجندي مكلف بإبلاغك خبرًا مؤلمًا، أن أخاك..
- عبد الملك؟
- عبد الملك.. أعدم في فرنسا!

فصرخت الفتاة صرخة مفجعة، وسقطت على الأرض مغشيًا عليها.

وبعد يومين، عثروا في تل العقارب، وفي نفس المكان الذي أحرق فيه أحمد الوالي، على جثة فتاة ملقاة في بقعة من الدم المتجمد. وتبين من التحقيق أنها قطعت عرقًا في مقدمة ذراعها، فسالت دماؤها، وفاضت روحها.

ودفنت زينب في ذلك المنزل، الذي شهد حياتها، ورددت جدرانه صدى زفراتها، وضمت أرضه رفاتها!

من أبي الهول إلى قوس النصر

- أماه.. أماه!

- تشجع يا ولدي، فالموت كأس كل إنسان شاربه، إن عاجلًا وإن آجلًا، فتذرع بالصبر، وتجلد أمام الشدائد. أما كانت أمك في حياتها المضطربة مثالًا للتصبر والتجلد؟

- ولكن أبي؟ أين أبي؟ من هو أبي؟ أما آن الأوان لتمزيق ذلك السر الذي يحجب عني حقيقة أمرك، ولمكاشفتي بالسر المدفون في أعماق صدرك؟ لقد طالما وعدتني.

- وعدتك وسأبر بوعدي، اسمع..

نهضت "عائشة" من فراشها، وغالبت الألم، وضمت ابنها "محمود" إلى صدرها، وقصت عليه قصتها:

- إن الدم الذي يجري في عروقك يا بني هو مزيج من الدم المصري والدم الفرنسي.

- رباه!

- لا تقاطعني يا محمود، ودعني أقص عليك الفاجعة إلى النهاية، ثم احكم بما تشاء، وافعل ما يمليه عليك ضميرك ووجدانك، تعلم جيدًا أن كثيرين من الضباط والجنود الفرنسيين، الذين رافقوا القائد

بونابرت إلى مصر، وأقاموا فيها حكامًا وأسيادًا، قد حملتهم مصلحتهم الخاصة ومصلحة بلادهم على التظاهر باعتناق الإسلام؛ لكي يكتسبوا بذلك عطف الشعب، ويستميلوه إليهم، ويحولوا دون نشوب ثورة تطردهم خارج مصر، وتعيد هذه البلاد إلى أبنائها.

- أعلم ذلك، وأعلم أيضًا أن كثيرين من المصريين قد أخذوا في حبائلهم، واعتقدوا فيهم الإخلاص في اعتناق الإسلام، فألقوا ببناتهم بين أحضان أولئك الغزاة، وكانت النتيجة..

- كانت النتيجة أن معظم من تظاهروا بالإسلام عادوا إلى وطنهم مع فلول الجيش الفرنسي كأنهم لم يرتبطوا برابطة، ولم يقطعوا عهدًا مع أحد في هذه الديار، فتركوا نساءهم، وتركوا معهن ثمرات بطونهم، وكانت أمك يا بني إحدى تلك الضحايا البريئات!

- أماه!

- نعم يا محمود، أنت ابن الضابط الفرنسي "مرسيه"، الذي اعتنق الإسلام وصاحب أبي "إبراهيم بك حامد"، فرضي ذلك الأب المسكين المغرور، أن تصير ابنته زوجة للضابط "محمد مرسيه"، فأذعنت للأمر، وتزوجت، وبعد سنة من ذلك اليوم المشؤوم، رأيت النور يا بني!

- وبعد؟

- وبعد، دعني أمر بسرعة على الحوادث المحزنة المبكية التي توالت

علي، مات جدك إبراهيم بك، ودارت الدائرة على جيش الفرنسيين، فرحلوا عن البلاد عائدين إلى أوطانهم، وتركني أبوك أندب حظي، وأغسل وجهك الصغير بدموعي!

– يا للفظاعة! لكن ذلك الخائن..

– إنه أبوك يا محمود!

– سأبحث عنه وأنتقم منه.

– لا، أبحث عنه إذا شئت، ولكن ليس للانتقام منه. لو عثرت عليه أنا لأنزلت به العقاب الذي يستحقه، أما أنت فواجبك يقضي عليك بغير ذلك. المرأة تنتقم من الرجل الذي أغراها وخان عهدها، أما الابن فلا ينتقم من أبيه. لقد عشت شقية تعسة، وتجرعت كؤوس البؤس حتى الثمالة، لكنني سعيدة بك يا ولدي، لقد بلغت السادسة عشرة من سنيك، وهأنا الآن ألفظ نفسي الأخير بين ذراعيك، ملقية رأسي على كتفك، وقد أنستني هذه الساعة الأخيرة جميع ما عانيته في حياتي من آلام مبرحة. لتكن السعادة ملازمة لك يا بني بقدر ما كانت معرضة عن أمك!

– أماه.. أماه!

قضت عائشة نحبها، أما محمود فسافر إلى باريس عاصمة الفرنسيين، إذ قيل له إن مرسيه لا يزال ضابطًا في جيش الملك، بعد أن خدم مدة طويلة في جيش الإمبراطور.

تقرب هناك إلى المعلم يعقوب القبطي"أو الجنرال يعقوب كما كانوا يسمونه" الذي رافق الفرنسيين إلى وطنهم، وعلم بعد البحث أن أباه عين ملحقًا في سفارة فرنسا بعاصمة النمسا، فسافر إليها، لكن أباه كان قد رحل عن فيينا عائدًا إلى باريس، بينما كان محمود في طريقه إلى النمسا!

ظل الشاب التائه أسبوعين في فيينا، وقص قصته على الدوق دي رشتاد "النسر الصغير" ابن نابليون الأول، المنفي عن وطنه.

كان الدوق الشاب بعيدًا عن أبيه، لا يستطيع أن يذهب إليه، فحسد محمودًا المصري على حريته. وقد قال له مرة:

- إنني أقيم هنا في قصر جدي، وفي كنف والدتي، لكنني أريد أن أرى أبي، وأن أذرف دمعة واحدة وأنا ملتجئ إلى صدره! هذا ما ستحصل عليه أيها الغريب، أما أنا فسأبقى في سجني المذهب، في قصر شنبرون!

فبكى محمود، وطبع قبلة على يد الأمير المريض!

***

عاد إلى باريس، وهناك أخبره المعلم يعقوب القبطي أن الضابط مرسيه سافر إلى تركيا في مهمة سياسية، وطلب إليه أن يقيم معه إلى أن يعود أبوه.

فقبل الشاب ضيافة مواطنه، ومرت السنون.

١٩ يوليو سنة ١٨٣٦

كان ذلك اليوم يومًا مشهودًا في تاريخ فرنسا، فتألبت الجماهير في الشوارع والميادين؛ للاشتراك في الاحتفال برفع الستار عن "قوس النصر"، الذي أمر نابليون الأول بتشييده سنة ١٨٠٦، والذي لم يتم بناؤه إلا في سنة ١٨٣٦.

خرج محمود مع من خرجوا لمشاهدة النصب العظيم، ووقف أمام ذلك القوس، فهاجت في صدره ذكريات الماضي، وتصور أمام عينيه أبا الهول العظيم، الرابض في صحراء الجيزة، وتخيل ما قصه عليه مواطنوه في مصر من المعارك الهائلة التي دارت رحاها في سفح الأهرام، وتذكر أمه المسكينة، التي خدعها ذلك الجندي الظافر، ثم هجرها، فانهمرت الدموع غزيرة من عيني محمود، وسمعه الناس يتمتم كلمات لم يفهمها أحد؛ ذلك لأن الشاب كان يخاطب نفسه، ويخاطبها بلغة بلاده وعشيرته!

– لقد ماتت أمي ودفنت معها حزنها، ومات يعقوب وكان صديقي الوحيد في هذه الديار، ومات الدوق دي رشتاد منفيًا وكان يعطف علي، أما أبي.. أبي.. فكيف السبيل إلى الوصول إليه؟ ولو صلت إليه فهل يحن قلبه علي ويضمني إلى صدره؟ لا لا، إنه سينبذني كما نبذ أمي.

وفي وسط ذلك الازدحام الشديد، والهتاف المتواصل، ودوي الطبول، وأصوات الأبواق، ارتفع صراخ من نوع آخر، صراخ رعب ودهشة!

فأسرع الجنود المحافظون على النظام إلى موطن الجلبة، فرأوا جماعة من المتفرجين يحيطون بجثة هامدة، وقد سالت الدماء من جرح بليغ في الصدر، وتجمدت على نصل الخنجر الذي لجأ إليه محمود للقضاء على نفسه.

فحملوا جثته، وظل القوم في هرج ومرج.

على هيكل عشتروت

"أواه، أواه، أواه!..".

نهض الكاهن الأعظم "آرام" من فراشه مذعورًا على صوت ابنته، وأسرع مهرولًا إلى حجرتها، فإذا به أمام الفتاة وقد ألقت بنفسها على الأرض، وجعلت تقبل بلاط الحجرة أمام تمثال عشتروت، وتذرف الدموع وتقرع صدرها بيدها صائحة بأعلى صوتها:

- أواه، أواه، أواه!..

أخذ الكاهن ابنته المحبوبه بين ذراعيه، وغمر رأسها بالقبلات، وهي تصيح مرتعشة:

- رحماك يا ربة الحب والانتقام! سأصنع ما تأمرينني به.

جعل الكاهن يهدئ روع الفتاة سائلًا عما أصابها، مستفهمًا عن سبب ذعرها.

فقالت الفتاة "زامورات" لأبيها:

- أبتاه! لقد أعددتني زوجة لابن أخيك "حارام" النوتي، ومنذ الساعة التي اتخذت فيها قرارك هذا لم يغمض لي جفن ولم أذق راحة ولم أهنأ بعيشن أبتاه! إنني لا أحب ابن عمي حارام، ولا أريده زوجًا لي، بل إن الآلهة التي نعبدها والتي تقوم أنت بخدمتها، لن ترضى بهذا

الزواج ولن تقره!

سكتت الفتاة لحظة، وتنفست طويلًا، ظنًا منها أن الكاهن سيغضب وينزل بها نقمته. لكنه ظل صامتًا ينظر إليها بحنان، فاستطردت قائلة:

- إنك خادم معبد عشتروت ورئيس كهنة فينيقيا في معابد ببيلوس وهياكلها، وقد علمتني أن أستشير ربتنا القديرة الجبارة في كل أزمة نفسية تساورني، وكل ملمة تحدق بي.

وهنا قاطعها الكاهن قائلًا:

- نعم يا ابنتي! فإن الربة عشتروت لخير مرشد نفزع إليه!

- أبتاه، لقد عملت دائمًابوصيتك، واتبعت نصائحك وإرشاداتك، وها قد مضت علي ثلاثة أيام بلياليها، وأنا أرفع أكف الضراعة لعشتروت؛ لكي يهبط علي وحيها، وتنزل علي إرادتها، وتغمرني نعمتها ورحمتها!

فقاطع الكاهن ابنته ثانية سائلًا:

- وهل أجابتك يا ابنتي؟

- نعم، تجلت لي الربة المعبودة الليلة، في هالة من النور، تحف بها الكاهنات العذارى، وسمعت صوتها يهيب بي قائلًا: "زامورات، لن تتخذي لك من أبناء قومك بعلًا، فإما أن تكوني للإسكندر المقدوني، وإما أن تقدمي طهرك وعفافك ذبيحة على هيكلي في صيدون الظافرة!".

سكتت الفتاة ثانية، ونظرت إلى أبيها، فإذا به صامت لا ينبس، فقالت زامورات:

- هذا ما قالته لي الربة عشتروت الليلة يا أبي، فهل تريدني أن أكون لإرادة عشتروت عاصية، ومن واجب الطاعة لآلهتنا العظام مارقة؟!

أطرق الكاهن الأعظم لحظة، ثم رفع رأسه وطبع قبلة حنان على جبين ابنته، وقال:

- كلا يا ابنتي! لن أريدك كما تقولين، فأنت منذ هذه اللحظة ملك للآلهة دون الناس. ادخلي المعبد ولا تخرجي منه إلا للقاء الإسكندر المقدوني، الذي اختارته لك عشتروت زوجًا وسيدًا.

فقبلت الفتاة يد أبيها، ثم استطردت قائلة:

- وقد ختمت الربة حديثها بهذه الكلمات يا أبي: "ستظلين في هيكلي مقيمة، إلى أن يأتيك الفاتح ويفك أسرك، أو تموتي في اليوم الذي يقع فيه نظرك على جثة الإسكندر، إذا قدرت الآلهة رحيله قبلك عن هذا العالم".

سنة ٣٣٢ قبل الميلاد

عاد الإسكندر الفاتح المقدوني العظيم من ديار الهند إلى أرض مادي وفارس، بعد أن أخضع لسلطانه الشعوب، وشيد اثني عشر هيكلًا لآلهة اليونانيين، وافتتح بحد السيف الممالك، وانتزع التيجان عن هامات أصحابها.

وقرر أن يستريح الجيش الغازي سنة كاملة من التعب والعناء والحروب، وجعل يرسم مع قواده المحنكين وأنصاره البواسل، خطة العمل المقبل؛ لإخضاع البقية الباقية من الشرق، الذي كان يريده ملكًا له دون سواه من الملوك والغزاة.

لكن العدو الوحيد الذي لم يكن في الحسبان، والذي لم يكن في استطاعة الفاتح العظيم قهره"المرض" هاجم الإسكندر وطرحه على فراشه ضعيفًا، لا يقوى على صده، ولا يعرف إلى دفعه سبيلًا.

وبعد اثني عشر يومًا، قضى الإسكندر نحبه، بين أقطاب جيشه وأطبائه وحكمائه ومستشاريه، وقد استولى عليهم الذهول، وانقض عليهم المصاب الفادح انقضاض الصاعقة، وكان ذلك في شهر يونيو من ذلك العام المشؤوم!

مات الإسكندر المقدوني في الثالثة والثلاثين من عمره، وكان جالسًا على عرش أبيه فليبوس منذ ثلاث عشرة سنة.وقبل أن تفارق روحه الجسد، صاعدة إلى عالم الخلود ومقر الآلهة، جمع حوله الخواص والمقربين، وأفضى إليهم بإرادته الأخيرة:

"أريد أن تنقل جثتي إلى بيبلوس في فينيقيا، وتغسل بماء نهر أدونيس المقدس، وتعرض على أنظار الناس عشرة أيام في هياكل صيدون، ثم تنقل إلى مصر وتدفن في واحة آمون، بجانب الإله أبي!".

قضى أرباب الفنون والصنائع سنتين في إعداد الناووس والمركبة التي تنقله إلى مقره الأخير، وتحرك الموكب في سنة ٣٣٤ قبل الميلاد،

سائرًا من بابل إلى مصر، بطريق فينيقيا وبلاد موآب.

وكان يومًا مشهودًا، ذلك اليوم الذي ارتفعت فيه أصوات الأبواق في فينيقيا، تنبئ بأن جثة الإسكندر، قاهر دارا وفاتح الهند، قد اجتازت تخوم البلاد في مركبة يجرها أربعة وسبعون من الثيران القوية.

وتدفق السكان من الثغور والقرى والجبال، لرؤية المشهد الرائع، حاملين غصون الأرز مبللة بمياه نهري أدونيس وليقوس، وجرارًا مملوءة بتلك المياه، وقد أخذت من منبع النهرين في بطن الجبل، وأقاموا في طريقهم أعمدة من الصخور الصماء على قمم لبنان دلالة على حزنهم.

واجتازت المركبة الجبل في ظلال الأرز، وغسلت الجثة في مياه النهر المقدس، وعرضت على الأنظار في هياكل عشتروت. وكان بطليموس ملك مصر قد غادر وطنه على رأس جيش جرار، لتسلم جثة الفاتح العظيم والسير بها إلى مدينة الإسكندر الإسكندرية.

وخرج كهنة الفينيقيين للقاء الموكب الحافل، فتجمعوا في مدينة صور، يحيط بهم عظماء البلاد وقوادها وزعماؤها، ويتبعهم الشعب الحزين الباكي.

وهجرت الكاهنات العذارى معابد تموز وعشتروت وملكارث، وأسرعن مع الكهنة إلى تحية رفات الإسكندر، وكانت زامورات بينهن، تذرف الدموع وتصعد الزفرات!

كان أمرها قد اشتهر بين الناس، فأطلق عليها أبوها الكاهن الأعظم

اسم "حبيبة الإسكندر" فعرفت بههذ التسمية في المعابد وخارجها.

ظلت الفتاة خاضعة لإرادة عشتروت، ربة الحب والانتقام، التي حرمت عليها الزواج، وأمرتها بأن تحتفظ بنفسها للإسكندر المقدوني دون سواه من الرجال، وألا تتخذ لها من بين أبناء قومها بعلًا، وأن تموت في اليوم الذي يرحل فيه الفاتح عن هذا العالم، إذا قدرت الآلهة القوية الجبارة ذلك.

وكانت زامورات في أثناء تلك المدة تصلي للآلهة، وتحرق البخور على هيكل عشتروت، وتخرج مع رفيقاتها الكاهنات العذارى إلى سفوح الجبال، لجني الأثمار، وقطف الأزهار، وجمع الرياحين لأدونيس أو تموز كما كان الفينيقيون يسمونه، في الشهر الذي لا يزال القوم إلى الآن يطلقون عليه اسم معبود بيبلوس "تموز" وهو الشهر السابع من السنة.

وكانت الفتاة قبل أن تجنح إلى فراشها وتلقي بنفسها في أحضان إلهة الظلام، تركع على ركبتيها، وتقرع صدرها بيديها، أمام تمثال الربة عشتروت الرهيبة، طالبة منها أن تقرب اليوم الذي تصبح فيه الفتاة زوجة للإسكندر، أو رهينة الموت على هيكل الآلهة في صيدون الظافرة. وأجابتها عشتروت إلى سؤالها.

فها هو الإسكندر قد رحل إلى جوار أبيه آمون، ونقلت جثته لكي تدفن في أرض الفراعنة. إذن ينبغي للفتاة ابنة الكاهن الأعظم آرام حبيبة الإسكندر أن تلحق بحبيبها الذي لم يعرفها؛ عملًا بإرادة الآلهة وتنفيذًا لمشيئتها.

وذلك في اليوم الذي يقع فيه نظرها على جثة الفاتح، العائد من فتوحاته في نعش ذهبي تجره الثيران!

***

قال الكاهن الأعظم آرام لابنته:

- بنيتي! أواثقه أنت من ذلك؟ أتلك هي إرادة عشتروت التي لا مرد لأمرها، أم أنك واهمة، فريسة حلم مزعج ووهم طائش؟

فأجابت زامورات:

- أبتاه! إن أمر الربة المعبودة كان واضحًا جليًا، وكانت إرادتها صريحة قاطعة، فالوداع إذن! لقد وقع نظري على جثة الإسكندر، ورأيت النعش الذهبي الذي يضم رفاته الطاهر،تذرع بالشجاعة والصبر يا أبي، ولا تترك للوهن والشك إلى نفسك منفذًا. أتكون كاهن عشتروت الأعظم، وتترد في تنفيذ رغبة عشتروت؟

قالت الفتاة ذلك، وأخذت ذراع أبيها بيدها، وصعدت معه درجات الهيكل، حيث تقيم عشتروت وراء الحجب والمآزر المقدسة، وأشارت إلى الخنجر الذهبي المعد لنحر الذبائح على هيكل الآلهة.

لكن الكاهن تردد وتراجع، فما كان من الفتاة إلا أن تناولت بيدها ذلك الخنجر الذهبي، وأمسكت به من نصله، وقدمت قبضته المرصعة بالجواهر لأبيها الكاهن آرام.

وقالت زامورات، بصوت متهدج:

– أسرع يا أبي ونفذ إرادة الآلهة!

وارتفعت في أرجاء المعبد أصوات الكهنة والكاهنات، تضرع إلى إلهة الدماء بأن تتقبل الذبيحة الطاهرة، وتبسط رواق رحمتها على المدن والحقول، وتعيد إلى الموانئ سفن الفينيقيين من رحلاتها البعيدة، وتأخذ بيد تجار اللؤلؤ والزجاج الضاربين في طول الممالك وعرضها، وفي مشارق الأرض ومغاربها، وترد عن الأوطان غزو الغزاة وكيد الكائدين، وتحل السعادة في صدور الأفراد والجماعات، وتبعث للعذارى بأزواج صالحين، وللشبان الأقوياء بزوجات صالحات!

وفي وسط تلك الضوضاء رفع الكاهن الأعظم آرام ذراعه اليمنى، فأخذت أعين الحاضرين وميض نصل يلمع في قبضته، لكنهم لم يسمعوا الصرخة المفجعة التي أرسلتها الفتاة زامورات عندما اخترق النصل الذهبي صدرها، ومزق ثديها واستقر في قلبها؛ لأن تلك الصرخة ضاعت بين أصوات المصلين وضجيج الهاتفين!

***

هكذا ماتت زامورات الفينيقية حبيبة الإسكندر، بيد أبيها الكاهن الأعظم آرام، في هيكل عشتروت المعبودة الجبارة، المتعطشة إلى الدماء، في مدينة صيدون الظافرة، في سنة **٣٣١** قبل الميلاد، عملًا بإرادة الآلهة وتنفيذًا لمشيئتها!

جلبا الأفريقي

جلس "جلبا الإفريقي" مع زوجته اليونانية الحسناء "نيرا" على شاطئ النهر، في ظلال شجرة كثيفة الأغصان، خارج أسوار روما، وجعلا يتجاذبان أطراف الحديث، ويتبادلان نجوى الغرام، ويتناولان قبلات الإخلاص الحارة العذبة.

وقال جلبا لزوجته المحبوبة:

- أي نيرا، عزيزتى التي أفديها بدمي، لنرفع الآن أكف الضراعة للآلهة القديرة، طالبين منها أن ترعى حبنا بعنايتها، وتدفع عنا الأذى، وتجعلنا في مأمن من كيد الكائدين وأعين الحساد الغادرين!

فأجابت نيرا، مطوقة بذراعيها عنق زوجها المحبوب:

- أي جلبا عزيزي، إنني أفعل ذلك كل يوم، عند ما تغادرني إلى قصر الإمبراطور للقيام بعملك، فإني أصلي دائمًا وأبتهل إلى الآلهة؛لكي تجعل جميع أيامك حافلة بالسعادة والهناء، وتحفظ لك على الدوام عطف الإمبراطور ورضاه، فلو حدث لك سوء أيها الحبيب لمت من الأسى!

فتعانق الزوجان طويلًا، وقال جلبا لنيرا الحسناء:

- إنني واثق من عطف الإمبراطور نيرون علي يا حبيبتى؛ فقد كنت في قصره عبدًا رقيقًا، لكنني أخلصت له الخدمة وأنقذت حياته في

الحروب، فكافأني بذلك العطف الذي يحسدني عليه رجال القصر جميعًا، وأعتقني فأصبحت الآن حرًا طليقًا. ولا يسعني إلا أن أحفظ للإمبراطور جميل الذكرى؛ لأنه حطم بيديه وبإرادته سلاسل الرق وقيود العبودية التي كانت تغل عنقي وتذله، ولم أتقدم إليك يا نيرا طالبًا منك أن ترضي بي زوجًا لك إلا بعد أن أصبحت حرًا، وزال عني ذلك العار الشنيع! لم أولد عبدًا يا نيرا، وإنما ولدت من أبوين حرين، كانا في الصحارى الأفريقية يبسطان سلطانهما على القبائل الضاربة فيها. ولكن روما بلغ بها الطمع إلى الاستيلاء على تلك المجاهل، فهزمت جيوشها قبائل أبي في الميادين، وكنت في العشرين من سني حياتي، فجيء بي إلى هذه المدينة الكبيرة، وألحقت بالعبيد الراسفين في قيود الذل، في قصر نيرون العظيم.

- إنني أعرف ذلك كله يا حبيبي، ولا أعيرك بأصلك، فأنت الشريف ابن الشريف، وعواطفك النبيلة تدل على أنك بين الرجال أصيل وابن أصيل.

- كنت أتألم من العبودية يا نيرا، إلى أن سنحت لي الظروف والفرص، فأثبت للإمبراطور أنني في الحروب جندي شجاع، وأن ذراعي أجدر بحمل السيف منها بتقديم أقداح الخمور للشاربين في حفلات السمر واللهو التي يحييها الإمبراطور في قصره. فقد وثبت في وسط القتال على جندي كان يهدد صدر نيرون بسنان رمحه، وبضربة واحدة فصلت رأسه عن جسده، وأنقذت حياة الرجل الذي أفقدني أبي وأمي ووطني وحريتي! وقد أراد نيرون أن يكافئني فأطلقني من

الأسر والعبودية، لكنني بقيت في القصر مقيمًا، وقد عهد إلي الإمبراطور بمراقبة حرسه الخاص، والإشراف على الأعمال التي يقوم بها العبيد في القصر الإمبراطوري. فأنت الآن زوجة ضابط في خدمة نيرون.

***

كان جلبا الإفريقي –كما كانوا يسمونه في روما– في الثلاثين من عمره عندما تزوج الفتاة نيرا اليونانية، وكانت نيرا تقيم في قصر القائد لوكولوس، الذي تبناها عندما بلغه أنها فقدت أباها الذي كان يحبه ويخلص له، ولم يتردد لو كولوس في الموافقة على زواج الشابين عندما ثبت له أن نيرون قد أطلق للعبد جلبا حريته، فأصبح إنسانًا كبقية البشر.

وكان ذلك سنة ٦٧ للميلاد، أي في السنة الثالثة عشرة لارتقاء نيرون أريكة الإمبراطورية. فقد ظل الشاب الإفريقي عشر سنوات كاملة يعيش عيشة العبيد في القصر الإمبراطوري، ويعامل معاملتهم، ويتحمل احتقار الناس وإهاناتهم.

وظن منذ ذلك الوقت الذي أصبح فيه حرًا وزوج امرأة حرة، أن أيام البؤس قد ولت، وأن الغد يخبئ له السعادة ويضمر له الهناء.لكن جلبا الإفريقي كان مخطئًا، فإن الأقدار كانت تحمل إليه في طياتها آخر حلقة من مصائبه.

فقد ذهب جلبا، بعد ذلك الحديث الذي دار بينه وبين زوجته، إلى منزله حيث ودع نيرا الجميلة، وأسرع إلى القصر الإمبراطوري فمثل بين

يدي نيرون، وأفضى إليه بالخبر السار، خبر زواجه باليونانية الحسناء.

وما إن انتهى جلبا من كلامه، حتى تطاير الشرر من عيني نيرون، وصاح به قائلًا:

- أية امرأة تعني يا جلبا؟ أتحدثنى عن نيرا ربيبة لوكولوس القائد الشجاع المحنك؟

- نعم يا مولاي، هي بعينها.

فسكت نيرون لحظة، ثم ارتسمت على شفتيه ابتسامة غريبة، لم يدرك جلبا الافريقي الطيب القلب معناها، وقال:

- إنني مرتاح لذلك يا جلبا، فاحمل إلى زوجتك تحية الإمبراطور الذي يحبك ويعطف عليك. وقد أجد في مستقبل الأيام فرصة أثبت لك فيها أن عطفي يمتد أيضًا إلى زوجتك وأبنائك، إذا رزقت في الغد أبناء.

فانكب جلبا على يد الإمبراطور العظيم يقبلها ويقول:

- إنه لشرف عظيم يا مولاي تغدقه علي، فحياتي ملك لك، وسأكون سعيدًا بأن أضحي بها في سبيلك.

***

عاد جلبا إلى منزله مشيًا على قدميه، ولكنه قبل أن يصل إليه أدرك أن حادثًا قد حدث في الحي الذي يقطن فيه، وحدثته نفسه بأنه وزوجته

ليسا غريبين عن ذلك الحادث.

سمع امرأة تنادي جارتها من نافذة بيتها، وتقول لها إن الجنود اقتحموا المنزل في الوقت الذي كان فيه الزوج غائبًا، واختطفوا الزوجة وحملوها في مركبة وولوا هاربين.وقالت الجارة إن زوجها قد قص عليها ما حدث، وإن المرأة التي اختطفها الجند "يونانية" مشهورة بجمالها، وإن زوجها من رجال القصر الإمبراطوري.

لم يكن في الحي من رجال القصر غير جلبا، ولم يكن فيه رجل سواه زوجته "يونانية مشهورة بجمالها".

صعق المسكين مما سمعه، وأسرع فأدرك منزله وقد أحاط به الجيران، وجعلوا يوجهون أسئلتهم إلى الخادمة العجوز، مستفهمين منها عما حدث.وشق جلبا صفوفهم كالمجنون، فإذا به أمام الخادمة وقد مزقت ثوبها، وأرخت شعرها، وانطرحت على الأرض تبكي وتلطم خديها، نادبة حظها وحظ سيدها.

وعلم منها أن عشرة جنود اقتحموا المنزل قبل قدومه بوقت وجيز، وحملوا نيرا معهم، غير مبالين بصياحها، وذهبوا بها إلى جهة غير معلومة. فثار ثائر جلبا الأفريقي، وأدرك في تلك اللحظة معنى الابتسامة التي طافت على شفتي نيرون عندما حدثه عن زواجه بنيرا اليونانية الحسناء، ولم يشك في أن الإمبراطور المتعطش إلى الدماء والأعراض، قد دبر له هذه المكيدة، وأنه هو المحرض على اختطاف زوجته، وأن الجنود الذين اقتحموا منزله إنما يعملون لحساب نيرون.

صعد الدم إلى رأسه، فالتفت إلى الذين كانوا حوله من سكان الحي وصاح قائلًا:

- أيها الناس كونوا علي شهودًا، أقسم بالنار التي يعبد أبناء قومي ألسنة لهيبها المتصاعدة، أنني لن أعود إلى هذا المنزل حيًا، لقد حرمني نيرون أبي وأمي ووطني وحريتي، ويريد الآن أن يحرمني زوجتي بعد أن يدنسها بعاره، ولكنني لن أسمح له بذلك ولن أترك جريمة كهذه تقترف، وعارًا يلطخ اسمي، وفي عروقي نقطة من الدماء تجري.إن لم يمت نيرون، فستموت نيرا ويلحق بها جلبا الأفريقي!

حاول الناس أن يهدئوا من ثورته، لكنه اقتحم صفوفهم من جديد وشق لنفسه طريقًا بينهم، وراح يعدو إلى الأمام كمن به مس من الجنون!

***

وصل جلبا إلى رتاج القصر الخارجي واندفع إلى الداخل وهو يرغي ويزبد، ولم يعترضه أحد من الحراس لأنهم كانوا يعرفون مقامه ووظيفته في البلاط، وظل الرجل سائرًا أمامه، مسرعًا إلى الجناح الذي كان يعرف أن زبانية الإمبراطور يحملون إليه النساء اللواتي يثرن شهوة ذلك النمر البشري!

وعندما وصل إلى باب البهو الكبير، المؤدي إلى ذلك الجناح، وقف مصعوقًا في مكانه لهول المنظر الذي وقعت عليه عيناه.

رأى جلبا –ويالهول ما رأى!– رأى زوجته المحبوبة نيرا، جثة هامدة ملقاة في مدخل البهو الكبير، لا حراك فيها، وقد علا وجهها شحوب الموت، وأحاط بها جماعة من ضباط القصر، أ من زملائه في الخدمة، ورفاقه في السهر على راحة الإمبراطور.

وتقدم منه أحدهم، ووضع يده بلطف على كتفه، وقال له بصوت مضطرب، والحزن بادٍ على وجهه:

– جلبا، إننا جميعًا نحمل لك في صدورنا الود والاخلاص والمحبة. إن مصيبتك عظيمة بفقد زوجتك، لكنها مصيبة لم تلطخ بالعار، ولم يلحق بك من أجلها شنار. لقد أراد الإمبراطور بك وبزوجتك سوءًا، لكن زوجتك أنقذتك وأنقذت نفسها من العار، فآثرت الرحيل عن هذا العالم طاهرة الذيل نقية الجسم مرتاحة الضمير. لقد خنقت نفسها بشعر رأسها. فإذا كنا نعزيك أيها الصديق لموت زوجتك، فإننا في آن واحد نهنئك على تلك الميتة الشريفة!

لم يرد جلبا على هذا الخطاب، بل ظل واقفًا في مكانه صامتًا، والدمع منحبس في عينيه يخنق أنفاسه، ويضاعف في ألمه.

ثم تحرك ومشى وألقى بنفسه على جثة المحبوبة المخلصة الطاهرة، وحينذاك انهمرت الدموع من عينيه كالمطر المدرار، وارتفعت زفراته في ذلك البهو، فاستدرت دموع رفاقه وزملائه، فوقفوا ينظرون إليه صامتين خاشعين.

وبينما هم كذلك، إذا بصوت قاصف كالرعد يدوي في أرجاء المكان صائحًا:

- اقتلوا الزوج ليلحق بزوجته اللعينة! أين جلبا الأفريقي، العبد الذي أعتقته وأطلقته من الأسر والرق، فجاء الآن يمانعني عرضه ويمسك عن زوجته!

فنهض جلبا عند سماعه ذلك الصوت الداوي، وصاح بالإمبراطور قائلًا:

- ألا لعنة الآلهة عليك يا أفظع الرجال وأقساهم! أبعد أن قتلت أخاك وأمك وزوجتك ينتظر منك أن تكون أكثر رفقًا بزوجات رعاياك وأمهاتهم وأخواتهم؟ سألحق بزوجتي يا نيرون، واعلم أن الظلم عاقبته وخيمة، وأن القاتل سوف يسقط، إن عاجلًا وإن آجلًا، تحت طعنات القتلة المنتقمين!

واستل جلبا الأفريقي خنجره، وأغمد نصله في صدره، فسقط على جثة زوجته، وامتزجت دماؤهما، وراحا شهيدين ضحيتين!

***

وبعد سنة من ذلك اليوم، ثارت الإمبراطورية الرومانية على نيرون، فختم ذلك الطاغية حياته منتحرًا، على مقربة من روما، بعد أن فر منها، ورأى أعداءه يستولون عليها، وينادن فيها بغيره إمبراطورًا على الرومانيين.

وكان ذلك في سنة ٦٨ للميلاد.

حارس نيورن

"النار، النار، النار!"

كلمة رددتها آلاف الأفواه، فتصاعدت من كل ناحية في روما، وتناولها الصدى فنقلها من شارع إلى شارع ومن حي إلى حي، وما هي إلا ثلاث ساعات حتى كانت المدينة تموج بحماهير الهاربين المذعورين، كل يحاول أن يفوز بحياته، بينما ألسنة النيران تندلع في المنازل والهياكل، وترتفع في الفضاء، وسط سحاب كثيف من الدخان القاتم.

وعلا الصياح والبكاء والعويل، وعمت المدينة قعقعة مخيفة، وانهارت سقوف البيوت على سكانها، وأعمدة المعابد على الكهنة والمصلين.

وخرج نيرون الإمبراطور العظيم في موكب حافل من حملة المشاعل، وحراس القصر، وجعل يطوف في روما وبيده قيثرته المحبوبة، يعزف عليها ألحانًا شجية على ضوء النيران. وكان ذلك في سنة ٦٤ للميلاد، وهي السنة الحادية عشرة لحكم نيرون.

وعاد الإمبراطور إلى القصر، بعد أن التهمت النيران المدينة الجميلة، وألقى القيثارة من يده، وجلس على مقعد وثير حاكته له أيدي العاملات الفينيقيات من الأطلس الأحمر، وقال لرجال حاشيته:

– لقد احترقت المدينة اليوم، وسيحفظ التاريخ هذا اليوم في سجلاته،

لكنني سأشيد على أنقاض روما المحترقة مدينة جديدة، تنسيكم ما كانت عليه المدينة القديمة من عظمة وجمال!

***

فنيرون يعرف الآن في التاريخ بأنه حارق روما، والتاريخ يظهره بمظهر الطاغية الجبار العنيد، المتعطش دائمًا إلى الدماء، الغارق فيها إلى رأسه.

ولا شك في أن شخصية ذلك الإمبراطور من أغرب الشخصيات التي حدثنا عنها المؤرخون، إن لم تكن أغرب شخصية عرفها الناس إلى الآن.

كان نيرون مجموعة رجال في رجل واحد، وفي أعماله من المتناقضات ما يجعل العقل يقف أمامه حائرًا، لا يدرى أى حكم يصدر عليه.

كان محبًا ومبغضًا، ومحبوبًا وبغيضًا. وكان رقيق الشعور وقاسي الفؤاد. وكان مصلحًا ومخربًا، وشاعرًا وعدو الشعراء، وموسيقيًا يضطعد الموسيقيين، وقد أعدم منهم كثيرين. وكان يعمل لمجد روما ومن ناحية أخرى يسعى إلى تدميرها وتخريبها.

ذلك هو نيرون الذي كان يعزف على القيثارة وينشد الأناشيد، بينما عاصمة ملكه تذهب طعمة للنيران.ذلك هو الإمبراطور الذي كانت حياته سلسلة فظائع ومنكرات، والذي لم يصنع الخير في مدى تلك

الحياة غير مرة واحدة كما سترى.

***

جلس نيرون على مقعده الوثير، ودعا رجاله إلى الجلوس حوله، وبعد أن اكتمل عقدهم، نادى الإمبراطور عبيده وخدمه، وأمرهم بأن يديروا كؤوس الخمر على الحاضرين.

وكان بين الخدم رجل يوناني هرب من دار سيده في أثينا، واحتمى بقصر الإمبراطور الروماني، فجعله حارسًا على مستودع الخمور، ورئيسًا على العبيد الذين يخدمون الضيوف في الأعياد والحفلات والولائم، واسم ذلك الرجل ديوموس.

نادى نيرون عبيده قائلًا:

– صبوا الخمر في الكؤوس وأديروها على الحاضرين، فإن هذا اليوم من أبهج أيام ملكي، ويجب أن نسكر بنشوة الخمر بعد أن سكرنا بمنظر النيران.

وأديرت الكؤوس حسب رغبة الإمبراطور، لكن ديوموس كان في ذلك الوقت خارج القاعة التي أقيمت فيها الحفلة، فالتفت نيرون بعد أن لعبت الخمر في رأسه وصاح:

– لا أرى ديوموس بينكم! فأين هو؟

– في أقبية القصر أيها المولى، يراقب العبيد وهم يحملون الخمر إلى هنا.

فغضب الإمبراطور، والتفت إلى قواد جيشه الواقفين بالباب وقال:

- لقد أمرت ديوموس بأن يصب لي الخمر في الولائم بيده، فماذا حدث اليوم؟ ولما يختبئ ذلك اليوناني اللعين؟ إلي به في الحال!

فجيء بديوموس، وألقى اليوناني المسكين نفسه على قدمي نيرون، وطلب العفو قائلًا إنه لم يبطئ في المجيء لخدمة الإمبراطور إلا لأن وجوده كان ضروريًا في أقبية القصر.

لكن نيرون لم يصغ إليه، بل رفع صولجانه بيده وضرب به رأس اليوناني ضربة شديدة أسالت منه الدماء وألقته على الأرض فاقدًا وعيه.

وأمر نيرون بأن يشد وثاقه ويطرح جانبًا إلى أن تنتهي الوليمة.

وبعد أن شرب الجميع وأصبحوا في حالة سكر شديد، صاح نيرون:

- إلي باليوناني ديوموس!

ونادى السياف وأمره بأن يقطع يدي اليوناني المسكين، فنفذ السياف الأمر بين صياح المدعوين وقهقهتهم وهتافهم!

***

- أتتألم كثيرًا يا أخي؟

- نعم، ولهذا السبب رجوتك أن تجهز علي لكي تريحني من هذا العذاب الشديد!

- لكنني لن أجيبك إلى رغبتك، بل أعتقد أن واجبي يقضي علي

بعكس ذلك، وكما أن الحر للحر في الملمات، فإن العبد للعبد أيضًا، والخادم للخادم، في السراء والضراء.

رفض زميل ديوموس، العبد الأفريقي "جازيبا" أن يجهز على اليوناني الذي قطعت يداه بأمر نيرون، فنقله إلى ناحية نائية من القصر، وجعل يعالج جراحه، ويعيد الثقة والأمل إلى نفسه، وما إن مضت أسابيع معدودة على ذلك اليوم، حتى كان ديوموس قد شفي من جراحه واستعاد قواه، وعقد النية على البقاء حيًا، وعلى الاستعاضة عن يديه بقدميه!

وجعل يدرب نفسه على الأعمال "اليدوية" جميعها، ويستحدم "قدميه" للقيام بها وبعد شهور أصبح ديوموس قادرًا على تناول طعامه وشرابه، ومساعدة رفيقه وصديقه ومنقذه في الأعمال التي كان يقوم بها في قصر الإمبراطور.

وشاءت الظروف أن تضع وجهًا لوجه مرة أخرى الجلاد وضحيته!

فإن الإمبراطور نيرون كان يطوف من وقت إلى آخر في أنحاء القصر، لتفقد أحواله بنفسه دون أن يعلم به أحد. وحدث ذات يوم أن كان مارًا في الجناح المخصص للخدم والعبيد، فوقع نظره على ديوموس وهو ينظف آنية الطعام بقدميه بمهارة فائقة.

وقف نيرون أمام ذلك الرجل مندهشًا مستغربًا، وكان قد نسي خادمة المسكين وما صنعه به في تلك الوليمة، فعاد أدراجه إلى مخدعه، وأرسل في طلب رئيس الحراس، وسأله من يكون ذلك الخادم الذي يستخدم قدميه بدلًا من يديه؟

فقال رئيس الحراس:

- هو خادمكم ديوموس اليوناني يا مولاي، فقد أمرتم بقطع يديه على مرأى من المدعوين، بعد حريق روما، فأنقذه رفاقه من الموت، وهو لا يزال إلى الآن يقوم بوظيفته في القصر بأمانة وإخلاص.

فبدأ التأثر على وجه نيرون، وأرسل في طلب دويوموس اليوناني فجيء به، وعندما مثل بين يدي الإمبراطور، قال نيرون:

- لقد أسأت إليك يا أخي إساءة عظيمة، فأرجو منك أن تغفر لي تلك الإساءة.

وتلك هي المرة الأولى التي وقف فيها نيرون مستغفرًا طالبًا الصفح.

فانطرح الرجل على الأرض وجعل يقبل قدم الإمبراطور قائلًا:

- إنني ملك لك يا مولاي فاصنع بي ما تشاء!

- أنت منذ الآن حارس من حراس هذا القصر، فقف بالباب وكن حرًا طليقًا!

وعرف ديوموس منذ ذلك اليوم باسم "حارس نيرون" وقد أغدق عليه الإمبراطور العطايا والهبات، وقربه إليه، وأمر عبيده بأن يقوموا بخدمته، وبألا يرفض له طلب في القصر الإمبراطوري.

عاش ديوموس "حارس نيرون" بعد ذلك في القصر معززًا مكرمًا، وجعل يدرب قدميه على أعمال دقيقة، كالرسم والتطريز ونحت التماثيل وصناعة الأسلحة والخزف. واشتهر في روما، وصنع تمثالًا لنيرون وضعه

الإمبراطور في حجرة نومه، وظل فيها إلى أن حطمه أعداء نيرون بعد موته، في سنة ٦٨ للميلاد.

ولم يطرد ديوموس من القصر بعد موت سيده، بل بقي فيه حرًا طليقًا، يقيم في غرفة خاصة، وتحت تصرفه ثلاثة من العبيد يقومون بخدمته.

ومات في سنة ٧٧ للميلاد، تاركًا بعده شهرة واسعة، وآثارًا فنية قيمة، ودون اسمه في التاريخ بجانب اسم سيده، الذي كان في آن معًا سبب شقائه ونعيمه، والذي لولاه لما أصبح ديوموس ذلك الفنان الذي صنع التماثيل، وأدهش الناس ببراعته ونبوغه، والذى أثبت أن الهمة القعساء تذلل الصعاب أيًا كانت، وأن الرجل إذا اعتصم بالصبر والإرادة الثابتة، تمكن من الاستعاضة عن يديه بقدميه!

جنكيز خان ينتقم

وصل الفاتح التتري المخيف جنكيز خان بجيوشه الجرارة إلى مدينة "بخارى" وأقام عليها الحصار من الجهات الأربع، وأوفد إلى أعيانها رسولًا يقول:

- إن مولاي جنكيز خان "سيف الله المسلط على رؤوس البشر" يقول لكم: "لقد ابتلاكم الله به لأنكم أفسدتم وتماديتم في الضلال، وما جاء إليكم إلا لكي يطهر الأرض من الفسق والفجور ويحارب الشر بالشر. فابعثوا إليه مفاتيح مدينتكم، وأقسموا له يمين الطاعة والخضوع لئلا يحل بكم ما حل بغيركم من الناس".

وكان في المدينة عشرون ألفًا من الجنود المسلمين، عقدوا النية على المقاومة والدفاع، وصد الغزاة الفاتحين، ودفع البلاء المستطير عن أنفسهم وأبنائهم وذويهم.

فطردوا الرسول واستعدوا للقتال، وعلت في فضاء بخارى المنيعة أصوات المقاتلين، وتصاعد تهليلهم وتكبيرهم، منبعثًا من أعماق الصدور: "الله أكبر الله أكبر!".

ودون السلطان محمد ورجاله الأشاوس المغاوير في ذلك اليوم العظيم صفحة من أمجد الصفحات في تاريخ الإسلام، فقاتلوا المهاجمين قتال الأبطال، واستبسلوا في دفاعهم مستميتين.

لكن المثل يقول من قديم الزمان: إن الكثرة تغلب الشجاعة، وإن عشرة أطفال عزل يقهرون كميًا شاكي السلاح.

تغلبت الكثرة على الشجاعة في تلك المعركة الدموية، فدخل جنكيز خان المدينة فائزًا منصورًا، وأمر جنوده بذبح السكان شيوخًا ونساء وكهولًا وأطفالًا، لكنه حذرهم من قتل الشبان، وطلب إليهم أن ياتوا بهم إلى معسكره مصفدين بالأغلال.

تلك كانت خطته في جمع العساكر لجيشه العظيم، فإنه كان يذبح سكان البلاد التي يجتاحها ولا يعفو إلا عن الشبان؛ لكي ينضموا إلى رجاله ويلحقوا بجيشه الظافر.

وهذا ما أمر زبانيته بصنعه في بخارى، فأضرمت فيها النيران، وسالت الدماء، وغادرها الفاتح التتري خرابًا يبابًا، سائقًا معه ما تبقى من سكانها، أي خمسة آلاف من الشبان الأشداء. وكان ذلك في سنة ٦١٧ هجرية، الموافقة لسنة ١٢٢٠ للميلاد.

وفي الساعة التي كان جنكيز خان يستعد فيها للرحيل، بعد أن شاهد من أعلى الربوات المحيطة بالمدينة الدخان يتصاعد من خرائبها وأطلالها، اقترب منه قائد من قواده وقال:

- مولاي ملك الملوك، لقد أمرتنا بذبح النساء جميعًا، لكننى عفوت عن إحداهن وجئت بها إليك؛ لأنني أعتقد أنك لا ترضى لها بالموت كغيرها، وأنك ستأمر بتعذيبها والتنكيل بها.

فالتفت إليه جنكيز خان مقطب الجبين وقال بصوت أجش:

- من هي تلك المرأة وماذا صنعت؟

فأجاب القائد:

- أما من تكون فهذا ما أجهله، لكنني أعلم أنها قاتلت رجالنا قتال اللبؤة الهائجة الثائرة! فقد كانت تلك المرأة معتصمة مع زوجها في منزل قديم متهدم، فتمكنت من قتل ثلاثين من جنودك يا مولاي قبل أن تصل إليها أيدينا، وقد ذبحنا بعلها على مرأى منها وسقناها إليك صاغرة ذليلة.

- إلي بها!

***

جاؤوا بالمرأة، وما وقع عليها نظر جنكيز خان حتى انتفض في مكانه صائحًا:

- هالون، هالون! ألا لعنة الله عليك يا ابنة اللئام! إنك تنفذين هنا ما أقسمت به هناك، وتبرين باليمين التي قطعتها على نفسك في بلادنا.

ثم اقترب من المرأة التي ظلت جامدة في مكانها، لا تنطق بكلمة، فصفعها بيديه على خديها، وقال:

- سوف أنزل بك العقاب الذي تستحقينه!

وعادت الذاكرة بالفاتح التتري إلى أيام الصبا وعهد الشباب، ومرت في مخيلته حياته الماضية.

كان أبوه أميرًا على قبيلة من قبائل التتار في شمال الصين، فمات عنه وهو صغير، وتحالف عليه أهله وذووه وأمراء القبائل الأخرى؛ لكي ينتزعوا منه السلطة ويوردوه موارد الهلاك. لكن أمه أنقذته من دسائسهم، وابتعدت به عن تلك الديار، واحتمت بصديق قديم كان من قبل حليف زوجها، وهو أيضًا من أمراء القبائل الرحل الضاربة في تلك الصحاري والجبال.

شب جنكيز خان وترعرع في كنف الأمير، الذي أحبه وأعجب بشجاعته وإقدامه وصفاته الحربية، فزوجه ابنته "الأميرة خاتون" وأصبح يعتمد عليه في الحروب والغزوات أكثر مما يعتمد على ابنه الضعيف الخائر العزيمة.

فدب الحسد في قلب الابن، وجعل يوغر صدر أبيه على جنكيز خان، الشاب الغريب، الذي يرمي إلى الاستئثار بالسلطة، والذى قد ينتهي به الأمر إلى دس السم للأمير لكي يخلوله الجو، ويصبح سيد القبيلة وقائدها الأوحد.

نجحت الدسيسة وأعرض الأمير عن صديقه وزوج ابنته، وأطلق يد ابنه النمام، وعهد إليه بأن يقتل جنكيز خان عندما يجد إلى ذلك سبيلًا. لكن زوجة الشاب فطنت إلى المكيدة، وأطلعت زوجها عليها، فعزم جنكيز خان على التخلص من الأمير وابنه قبل أن يتمكنا من إلحاق الأذى به.

وفي ذات يوم، نادى المنادي في مرابع الحي أن الأمير قد قتل، وأن النصل الذي أغمد في صدره وانتزع الحياة من بين جنبيه لا يزال باقيًا في صدر ولده، وقد مزقه واستقر في القلب. وكان ذلك في سنة ٦٠٣ هجرية، الموافقة سنة ١٢٠٦ للميلاد.

فبكت القبيلة أميرها وابن أميرها، ونادت بجنكيز الشاب الشجاع زوج الأميرة خاتون أميرًا بدل الأمير القتيل.

وبينما كان رجال الحي يشربون عصير التمر ويرقصون حول النيران الموقدة، إذا بامرأة تشق الصفوف، وقد مزقت ثوبها، وحلت شعرها وأهرقت عليه السمن والزيت، ووقفت في وسط تلك الجموع المحتشدة، وبسطت يديها فوق النيران صائحة:

- يا لكم من جبناء! إن قاتل أميركم وابنه، هو هذا الذي تنادون به اليوم سيدًا عليكم وقائدًا لكم، هو جنكيز خان اللقيط اللعين! لقد خنتم العهد الذي قطعتموه لأسرة أميركم، لكنني على ذلك العهد باقية، وسوف تجدني يا جنكيز يومًا من الأيام في طريقك، وأقسم لك أمام هذه النيران المشتعلة أن حقدي سيظل في الصدر مضطرمًا مثلها، وأنني سأنتقم منك وآخذ بثأر القتيلين!

قالت المرأة هذا، وانصرفت بين صياح النساء وأهازيج الرجال، فسأل جنكيز خان:

- من تكون هذه المعتوهة؟

فأجابوه:

- هي هالون أيها المولى، عشيقة الأمير الشاب الذي وجدناه ميتًا بجانب أبيه، وكان عازمًا على اتخاذها زوجة له، والمناداة بها فيما بعد أميرة على القبيلة عندما يصبح هو أميرًا عليها.

***

تلك هى المرأة التي ساقها جنود جنكيز خان إليه أمام أسوار بخارى، بينما كانت النيران تلتهم البقية الباقية من المدينة التعسة.

كانت المراة قد غادرت بلادها وراحت تهيم على وجهها من قطر إلى قطر، ومن مدينة إلى أخرى، حتى انتهى بها المطاف إلى بخارى، حيث وجدت نفسها وحيدة معدمة، غير قادرة على متابعة السير.

أضافها هناك رجل عربي يدعى عبد الله الموصلي، وبعد أن أقامت في بيته بضعة أيام، طلب منها أن تستقر في بخارى وتصبح حليلته؛ لأنه لم يكن متزوجًا. فرضيت هالون بما كتب لها على صفحة القدر، وبقيت في البيت الذي وجدت فيه تلك الضيافة وذلك الكرم.

ورزقت من عبد الله الموصلي ثلاثة أبناء أرضعتهم كره التتار مع اللبن، وأقسمت أن تجعل منهم ثلاثة جنود لمحاربة جنكيز وأبناء قومه، لكن الدائرة دارت عليها، وسبقها جنكيز إلى الانتقام، فهاجم بخارى واستولى عليها بعد ذلك القتال العنيف.

وقد دافعت هالون عن بيتها، مع زوجها عبد الله، فقتلت من التتار

ثلاثين رجلًا قبل أن يتمكنوا من اقتحام الباب وذبح الزوج وإضرام النار في أرجاء المكان.

***

وأصدر جنكيز خان أمره إلى جنوده بأن يحفروا في الأرض حفرة ويدفنوا فيها هالون زوجة عبد الله الموصلي وأبناءها الثلاثة، عقابًا لها على ما أبدته من شجاعة في الدفاع عن حماها والذود عن حياضها.

وأراد أخو الشر أن تدفن المرأة حية مع أبنائها أمام عينيه!

وبعد أن تم له ما أراد، أمر بإحضار مضربه المتنقل، الذي كان يجره ثلاثون من الثيران، فدخله وأشار إلى رجاله بالرحيل.

وغادر المدينة هادئ البال مرتاح الضمير، وشد رجاله الرحال إلى غزوات جديدة، إلى مدن تحرق، وأسوار تدك، وقصور تنهب، إلى محاربة الشر بالشر كما كان ذلك التتري الهمجي يقول، إلى القتل والسلب والسبي، إلى إقامة حكم التتار وملكهم على صروح من الجماجم وأنهار من الدماء!

ملكة قبرص

التقيت ذات يوم بصديق قبرصي، ولد في مصر ويقيم فيها ويحسن لغة أبنائها، فأمسك بيدي وقال:

- قرأت لك مرة قصة تاريخية عن أميرة من أميرات العهد الصليبي تدعى "اليونورا"، وقد ذكرتني تلك القصة بأميرة تحمل أيضًا هذا الاسم، جلست على عرش قبرص في عهد كانت فيه جزيرتنا متمتعة باستقلالها، باسطة نفوذها على سواحل البحر المتوسط. فلماذا لا تكتب قصة تلك الملكة القبرصية وتطلع قراءك عليها؟

فقلت له:

- أعرف أن إحدى ملكات قبرص في الجيل الرابع عشر كانت تدعى "اليونورا"، ولكني لا أعرف عنها ما يستحق الذكر، ويدعو إلى سرد قصتها في سلسلة مباحثي في "تاريخ ما أهمله التاريخ" فهل تعرف شيئًا عنها، أو تحتفظ ببعض المصادر التي يمكن الاعتماد عليها؟

فأجاب قائلًا:

- اتبعني وسأضع بين يديك ما يفيدك ويرضيك.

فتبعته، وبعد أن استقر بنا المقام في مكتبه، أخرج من أحد الأدراج كتيبًا يونانيًا وقال:

- هذه قصة ملكة قبرص اليونورا فهل تريد نقلها إلى العربية؟

فأجبت مرحبًا باقتراحه:

- نعم، على شرط أن تترجم لي ما يحويه هذا الكتيب، فأنشر ملخصه في قصة عن ملكتكم اليونورا.

وهذا ملخص ما جاء في ذلك الكتيب اليوناني:

فى سنة ١٣٥٩ للميلاد، عمت الأفراح مدينة نيقوسيا القبرصية، لمناسبة الاحتفال بزواج الملك بطرس الأول من أسرة لوسينيان، والأميرة اليونورا داراجون التي كانت تعد أجمل امرأة في الجزيرة كلها.

وتدفقت جماهير الشعب من جميع أنحاء المدينة على الميدان الكبير، أمام كنيسة القديسة صوفيا، لمشاهدة الموكب الفخم الذي سار من القصر الملكي إلى الكنيسة، مخترقًا شوارع المدينة بين الهتاف والتصفيق والدعاء الحار.

وكانت الملكة تحب الملك حبًا جمًا، وكان الملك أيضًا يحبها، ولكنه من ناحية أخرى كان ضعيف القلب أمام النساء، يلقي بنفسه بين أذرعهن كلما سنحت له فرصة، وأحيانًا دون أن تسنح له!

وأدركت الملكة بعد فوات الوقت أن زوجها طائش، وأنها لن تستطيع الاحتفاظ بإخلاصه لها وبقائه على حبها دون سواها من النساء.

وما لبثت أن فطنت –وكانت ذكية جدًا– إلى علاقة أثيمة تربط

زوجها بسيطة من سيدات البلاط تدعى "جان لالامان"، وخيل للملكة أنها استولت على فؤاد زوجها الملك، وأوقعته في حبائل حبها.

وجعلت الملكة اليونورا تتحين الفرصة للإيقاع بتلك المرأة الخائنة والانتقام منها، دون أن يشعر أحد بذلك، ودون أن يدرك الملك أن زوجته عالمة بأمره، مطلعة على سره.

واضطر الملك بطرس الأول ذات يوم إلى الإبحار من قبرص قاصدًا ديار الغرب، لقضاء بعض شؤون مملكته، ومفاوضة الملوك والأمراء في أمر الدفاع عن قبرص تجاه أعدائها الكثيرين، وبنوع خاص تجاه الأتراك الذي استفحل أمرهم في ذلك الوقت، وجعلوا يهددون سواحل البحر المتوسط وجزره.

بقيت الملكة اليونورا وحدها في الجزيرة بعد سفر زوجها، فاغتنمت الفرصة وجاءت بغريمتها جان لالامان، وجعلت تذيقها العذاب أشكالًا وألوانًا. وكانت الملكة اليونورا، مع جمالها البارع، حاذقة متفننة في المكر وأساليب التعذيب!

وحدث في أثناء ذلك للملكة حادث غريب، حادث لم تتمكن الملكة من تفسيره. ففي الوقت الذي كانت اليونورا فيه تنتقم من غريمتها جان لالامان لأنها انتزعت منها زوجها، وتعاقبها على ما أحدثته في نفسها من ألم وعذاب، في ذلك الوقت نفسه، شعرت نحو شاب من شبان البلاط بعاطفة لا تختلف في شيء عن العاطفة التي كان زوجها يشعر بها نحو سواها من النساء!

نعم، أحبت الملكة شابًا يدعى جان دي مورفو، وهي التي كانت تقضي الليالي باكية منتحبة؛ لأن زوجها أحب امرأة غيرها!

وفطن أعداؤها وأنصار غريمتها جان لالامان إلى ذلك، فأوفدوا رسلهم إلى الملك بطرس الأول، يطلعونه على ما حدث في غيابه، ويخبرونه بخيانة زوجته وخروجها عن جادة الصواب والواجب الزوجي.

فعاد الملك بطرس الأول من بلاد الغرب إلى جزيرته، وقلبه مفعم غيظًا وأسى، وقد وطد العزم على الانتقام من الزوجة الخائنة، لكن المرأة عرفت كيف تخدعه، وتخفي عنه حقيقة الواقع، وتظهر أعداءها بمظهر الكاذبين المنافقين. فاقتنع الملك بطرس الأول، ولكنه حنق على شعبه وعلى الذين أبلغوه ذلك الخبر "الكاذب" وجعل ينزل بهم أنواع العذاب والإرهاق، وأمعن في اضطهادهم إلى حد أثار حفيظتهم وحقدهم عليه، فتآمروا فيما بينهم على قتله والتخلص منه.

وخابروا بذلك أخاه الأمير "جان" الذي كان مقيمًا في أنطاكية بسوريا، واتفقوا معه على أن يكون نائبًا للملك وقيما على الأمير بطرس الصغير، ابن الملك بطرس الأول، الذي كان في الخامسة من عمره، ويحمل اسم أبيه "بطرس لوسينيان".

وفي ذات يوم، دخل المتآمرون على الملك وهو نائم في حجرته، فذبحوه ورفعوا على القصر الراية السوداء، ونادوا بولي العهد الصغير بطرس ملكًا على قبرص، وأقاموا عمه جان الأنطاكي قيمًا ووصيًا عليه.

***

كانت اليونورا قد عللت النفس في بادئ الأمر بأن يقع الاختيار عليها وصية على ابنها، فعندما خاب أملها، وتلاشت أحلامها، تضاعف غضبها على أولئك الأشراف الذين تآمروا عليها أولًا، ثم على زوجها فقتلوه، وجعلت تبحث عن وسيلة للقضاء عليهم وعلى الأمير جان نائب الملك.

ووقعت في أثناء ذلك حرب بين جمهورية جنوى ومملكة قبرص،فاحتل جنود جنوى مدينة نيقوسيا حيث وقع الملك الصغير بطرس أسيرًا، واحتفظ به الأعداء رهينة في القصر الملكي، وفرت الملكة ونائب الملك وأنصارهما إلى جهات أخرى من الجزيرة، حيث جعلوا يعدون العدة لاسترجاع المدينة الكبيرة من أيدي جنود جنوى.

جمعت الملكة الأشراف والزعماء في بيتها، وطلبت أن يتقدم واحد منهم للذهاب إلى نيقوسيا سرًا، وإضرام نار الثورة فيها بين أنصار أسرة لوسينيان؛ لإنقاذ الملك الصغير وإعادته إلى أمه، فلم يتقدم أحد من الأشراف للقيام بتلك المهمة الخطرة.

فصاحت الملكة بهم:

- أجميعكم جبناء؟ أليس فيكم من يقدم على التضحية في سبيل العرش والملك؟

وهنا ارتفع صوت ضعيف قائلًا:

- أنا لها يا مولاتي، مريني بما تريدين القيام به!

كان المتكلم فتى في العشرين من عمره، جميل الطلعة، براق العينين. فسألته الملكة:

- من أنت؟

- ديمتري دانيلوس يا مولاتي، فتى فقير لا يملك غير حياته، وهو يضعها في كفة الأقدار قيامًابواجبه نحو وطنه والأسرة المالكة.

***

ذهب الفتى ديمتري دانيلوس، متخفيًا في زى فلاح وعلى كتفع جرة مملوءة لبنًا، إلى مدينة نيقوسيا. وجعل يتردد عليها باستمرا، وينقل الأخبار والأوامر بين المقر الملكي وأنصار الأسرة في المدينة. حتى إذا ما أعد كل شيء لإثارة الفتنة المنتظرة، هب سكان المدينة دفعة واحدة وهاجموا معسكر الجنويين وأنقذوا ملكهم الصغير وحملوه إلى أمه.

وفي مساء ذلك اليوم دعي ديمتري دانيلوس للمثول بين يدي الملكة، وعندما وقع نظرها عليه، هطلت الدموع من عينيها وفتحت ذراعيها قائلة له:

- تعال يا بني! لقد أنقذت حياة الملك وأنقذت أسرة لوسينيان وأنقذت الوطن، فلك الشكر من الملك والأسرة والوطن!

والتف الشعب حول الملكة، وأعرض عن الأمير جان الأنطاكي نائب الملك، الذي عجز عن استرجاع المدينة من الجنويين، فرأت الملكة أن الوقت قد حان للانتقام منه، وأرسلت إليه ذات يوم جماعة من

أنصارها ومريديها ففتكوا به، وحملوا إلى الملكة رأسه على طبق من الفضة.

ودخلت الملكة على ابنها بطرس الصغير وبيدها رأس عمه يقطر دمًا، وقالت:

- بني، لقد قتلت عمك هذا لأنه تآمر مع أعدائنا على قتل أبيك والاستئثار بالسلطة!

فنظر الملك الطفل إلى رأس عمه الدامي، وانتفض في مكانه فزعًا صارخًا:

- أماه، ما أفظع هذا!

لكن الملكة لم تؤثر فيها صرخة ابنها، فألقت بالرأس على الأرض ووضعت قدمها عليه قائلة:

- هذا جزاء الخونة الذين يقفون في سبيلي!

كان يجب على الملكة اليونورا أن تقف عند هذا الحد، وأن تسهر بعد ذلك اليوم على ابنها، وتحسن السياسة مع الأشراف والأعوان والقواد؛ للاحتفاظ بعرشها، وصيانة ملكها.

لكنها كانت بعيدة المطامع كثيرة المطالب، فأرادت أن تكون فيالجزيرة حاكمة بأمرها، لا يعترضها معترض، ولا يقف في وجهها مرشد، فساءت أحوال المملكة، وعم الاستياء جميع طبقات الشعب، فأوفد القبرصيون إلى الملك بطرس مندوبًا من قبلهم، يطلب منه إما التنازل عن

العرش لسواه، وإما إبعاد أمه الملكة عن الجزيرة.

فاضطر الملك الصغير إلى إجابة الشعب إلى طلبه، وأصدر أمره بالقبض على أمه، ونقلها إلى سفينة أقلعت بها ليلًا بعيدًا عن سواحل الجزيرة، إلى وطنها الأول، إلى بلاد الأراجون القصية.

وقفت الملكة اليونورا في تلك الليلة التي احتجبت فيها النجوم وراء السحب الكثيفة، على ظهر السفينة التي أقلعت بها عن بلاد كانت فيها الآمرة الحاكمة، وجعلت تندب حظها، وتفكر فيما آل إليه أمرها، وتتذكر تلك الحوادث التي تخللت حياتها، وتبكى بكاء مرًا.

رأت زوجها يخونها، ورأت نفسها تخون زوجها، ورأت الأشراف يتآمرون عليها وعلى زوجها ويخونون الاثنين معًا، ورأت الأمير الأنطاكي شقيق زوجها يخون أسرته ويكيد لها في الخفاء، ورأت ابنها يخونها ويأمر بإبعادها عن عرش زوجها، رأت الخيانة مجسمة في كل من أحاط بها وفي نفسها.

ولم تظهر من خلال ذلك كله غير صورة واحدة نقية طاهرة، صورة ذلك الشاب الفقير النبيل، ديمتري دانيلوس، الذي لم يكن ممن ينتمون إلى الأسر الشريفة، والذى كان يحمل بين جنبيه عواطف تفوق سموًّاعواطف النبلاء والأشراف والملوك.

وبكت أيضًا، وابتعد بحارة السفينة عن تلك الملكة الحزينة الكئيبة الباكية، احترامًا لها وعطفًا عليها، وفي اليوم التالي، بحث البحارة عن الملكة اليونورا فلم يقفوا لها على أثر.

هذا ما جاء في الكتيب اليوناني عن الملكة اليونورا، التي أحبت وملكت فلم تحسن التصرف في حبها وملكها، وكانت نهايتها المحزنة أن راحت طعامًا للأسماك في خضم البحار!

توبة الإمبراطورة

دخلت الوصيفة على الإمبراطورة "تيودورا" وانحنت إلى الأرض، ثم تقدمت وهمست في أذن مولاتها هذا الاسم: "ميخائيل".

فرفعت تيودورا رأسها، وسألت:

- الكبير أم الصغير؟

فأجابت الوصيفة:

- الكبير يا مولاتي، ويبدو عليه القلق والاضطراب.

- ليدخل.

خرجت الوصيفة فنهضت تيودورا من مكانها وقادت الفهد الأليف الذي كان نائمًا على قدميها إلى حجرة مجاورة، ثم عادت إلى الوسائد الملقاة أمام النافذة المطلة على البحر، واستلقت عليها. ودخل في تلك اللحظة شاب في الثلاثين من العمر، طويل القامة، أزرق العينين، أشقر الشعر.

جثا "ميخائيل" على ركبتيه ووضع قبلة حارة على اليد التي بسطتها له الإمبراطورة، لكنها ما لبثت أن فتحت له ذراعيها، فألقى بنفسه في أحضانها، وغمر وجهها وعنقها وصدرها بالقبلات الغرامية الملتهبة.

ثم أجهش فجأة بالبكاء، وقال:

- أممكن هذا؟ أصحيح أنك تعرضين عني، وترغبين في أن أبتعد عن هذا القصر ولا أعود إليه بعد الآن؟ ماذا طرأ على حبنا، وأية عاطفة حلت في قلبك محل ذلك الغرام؟

فأخذت تيودورا رأس الشاب بين يديها، وقالت:

- ميخائيل، اصغ إلي، لقد أحببتك ولا أزال أحبك يا حبيبي! لكن في الحياة ظروف وحالات ينبغى للإنسان أن يحترمها ويحسب لها حسابًا. لقد أحببتك قبل أن أدخل هذا القصر، وأعتلي عرش بيزنطة، وأصبح إمبراطورة وزوجة إمبراطور. وحافظت على ذلك الحب فيما بعد، ومهدت لك السبل لكي تأتى خلسة إلى مخدعي الإمبراطوري، وتقضي معي الأيام والليالي، إلى أن حدث حادث قد تكون عاقبته وخيمة علينا.

- أي حادث هذا؟

- جاءني أخوك منذ أيام، وطلب المثول بين يدي، فأذنت له بذلك، ظنًا مني أن القادم هو أنت بنفسك؛ لأن أخاك يدعى مثلك ميخائيل.

- وماذا كان يطلب؟

- جاءني يعرض علي حبه مثلك أيضًا؟

- الخائن! وماذا قلت له؟

- طردته من القصر طردًا، فخرج من عندي غاضبًا مهددًا، قائلًا إنه

سيشيع في المدينة خبر علاقاتنا الغرامية، ويطلع عليها الإمبراطور قبل الرعية.

- يا له من مجنون أعمى!

- فبعد هذا الحادث، ينبغي أن تنقطع عن المجيء إلى هذا القصر، إلا إذا.. إذا..

- إذا؟

- إلا إذا عدل أخوك عن عزمه، أو زال من عالم الوجود.

- سأقتله الليلة!

- وغادر "ميخائيل الكبير" كما سمته تيودورا حجرة الإمبراطورة العاشقة، وهو يردد قائلًا: "سأقتله الليلة!".

***

بدأت تيودورا حياتها راقصة في ملعب، وهي ابنة "أكاسيوس" مروض الوحوش، أما أمها فإن اسمها مجهول وسيظل إلى الأبد مجهولًا.

مات أبوها وهي صبية، فضاقت الدنيا وجهها، وبحثت عن الرزق وسعت إليه في مختلف الأنحاء وبشتى الأساليب، فكانت تلتقطه حيثما تجده، في القصور والأكواخ والشوارع والحانات والمواخير.

أما الحب فإنها لم تعرفه، ولم تدع له سبيلًا للتسلط على قلبها، بل كانت تتاجر بمحاسنها وجمالها كما يتاجر البائع بالسلع، فيعطيها لمن

يدفع أكثر من سواه.

ورزقت ابنة جميلة كأمها، فخشيت تيودورا على الطفلة في ذلك الوسط الموبوء الذي كانت تعيش فيه، فابتعدت عن الملاهي والملاعب ودور التمثيل والرقص، وجعلت منذ ذلك الوقت تشتغل في صنع الأحذية والأزياء النسائية.

وترددت على بيتها نساء الطبقة الشريفة في بيزنطة، ووقع عليها ذات يوم نظر المير يوستينيانوس، ولي عهد الإمبراطورية الشرقية.

فأحبها وهام بها، ونسي من أجلها ما عداها من النساء، وهجر الفتاة التي كان أبوه قد أعدها زوجة له، وأراد أن يتزوج تلك البائعة، تيودورا الجميلة.

لكن ماضي المرأة، وسيرتها، والمهنة التي كانت تحترفها، والاسم الملطخ بالعار الذي تحمله، كل ذلك حال دون رغبة الأمير وأمنيته؛ لأن قوانين الدولة تحرم على أمراء البيت المالك أن يختاروا زوجاتهم من غير البيئة التي ينتمون إليها.

لكن يوستينيانوس لم يكن من أولئك الرجال الذين تتولاهم الحيرة في مثل هذه الظروف.

سن قوانين جديدة محل القوانين القديمة، وأجاز للأمراء أن يتزوجوا من يشاؤون من النساء، حتى ولو كن من الممثلات أو الراقصات أو البغيات.

وما جلس يوستينيانوس على عرش بيزنطة إلا وتيودورا بجانبه، وعلى رأسها تاج الإمبراطورية.

***

ظلت "الإمبراطورة" تحن إلى حياة "الراقصة"، وظلت تيودورا زوجة يوستينيانوس الإمبراطور تذكر بالحسرة والألم تلك الحرية التي كانت تتمتع بها تيودورا البغي، فقامت في نفسهاوهي جالسة على العرش رغبة شديدة في العودة إلى سيرتها الأولى، إلى التهتك، إلى إشباع شهواتها، والتمرغ في أحضان الحب المحرم كسابق عهدها به.

فأرسلت في طلب عشاقها الأقدمين، الواحد بعد الآخر، وأدخلتهم خلسة إلى قصرها، فتحول مخدع الإمبراطورة إلى مفسقة يلتقي فيها طلاب الهوى، وعشاق الجمال، ورواد الملذات.

وكان "ميخائيل" أحد أولئك المغرمين المعجبين بتيودورا، ومن أسعدهم حظًا لديها، وكان أخوه الصغير أيضًا من المترددين على القصر، لكن الإمبراطورة كانت تحذر كلا من الاثنين من أن يذكر للآخر شيئًا عن علاقته بها.

وحدث ذات يوم أن علم الأخ الصغير أن أخاه الكبير يتمتع لدى الإمبراطورة المتهتكة بحظوة، فهددها بكشف سرها إذا لم تطرد أخاه وتقفل في وجهه أبوابها.

فخشيت تيودورا سوء العاقبة على إثر ذلك الحادث، وراحت تغري

الأخ وتحرضه على أخيه؛ لكي ينقذها منه ويحول دون وقوع الفضيحة في البلاد.

***

وبعد يومين كانت تيودورا جالسة مع فهدها الأليف، أمام تلك النافذة التي كانت تحب الجلوس أمامها، وإذا بالوصيفة المطلعة على جميع أسرارها، تدخل عليها وتهمس في أذنها مرة أخرى ذلك الاسم:

– ميخائيل.

ضحكت الإمبراطورة في هذه المرة، وقالت:

– الكبير؟ إنني في انتظاره، ليدخل!

فدخل العاشق، كالح الوجه، مقطب الجبين، وقال:

– قضي الأمر، والأسماك تلتهم جثته منذ الأمس.

فنهضت تيودورا من مكانها، واقتربت من العاشق القاتل، وأمسكت بيديه، وحدقت فيه البصر، وقالت:

– أقتلته؟ حقًا؟

– نعم، وألقيت جثته في البحر.

فطوقت تيودورا عنقه بذراعيها، وقدمت له شفتيها، فالتصقت عليها شفتان تنبعث منها حرارة النار، وكانت قبلة لم يذق عاشق مثلها!

وبينما الاثنان مستلقيان على الوسائد الحريرية أمام النافذة المطلة

على البحر، يتداعبان ويتحادثان، حانت من المرأة التفاتة نحو يد عشيقها، فخيل إليها أن لطخة حمراء لا تزال باقية على كفه.

فنظرت إلى اليد الأخرى، وإلى وجهه، وإلى عنقه، فخيل إليها أيضًا أن بقعًا حمراء تلطخ اليد والوجه والعنق، وأن الدم الذي سفكه هذا العاشق القاتل –دم أخيه البريء– لا تزال آثاره باقية، مطبوعة، تشهد على المجرم الأثيم وتتهم من حرضه على القتل.

كانت تيودورا قد ارتكبت قبل ذلك اليوم جرائم كثيرة، وانغمست في الدماء والملذات المنكرة، لكنها لم تشعر مرة واحدة بأن هناك ضميرًا يؤنب المذنب على ذنبه، أما اليوم فإن ضميرها قد صحا من سباته، وهي تشعر وتحس بوخزه المؤلم.

فاستعرضت أمامها ذلك الماضي المثقل بالآثام والمنكرات والخيانات، وهالها ما أقدمت عليه في حياتها من أعمال مخزية معيبة، وسمعت صوتًا داخليًا يهيب بها:

– كفى شرورًا أيتها المرأة الدموية الفاجرة! لقد آن الأوان للتوبة فكفري عن ذنوبك وآثامك؛ إن الله يغفر للتائبين.

***

ظل العمال يشتغلون ستة شهور كاملة في بناء تلك الدار واسعة الأرجاء، القائمة على ضفاف البوسفور، التي أعدتها الإمبراطورة تيودورا ملجأ لخمسمئة من النساء الساقطات، اللواتي حملتهن على التوبة

والندم، فعدلن عن سلوكهن الشائن، ومفاسدهن السابقة، وأقمن في تلك الدار، في رعاية الإمبراطورة والإمبراطور.

نبذت تيودورا ماضيها بعد ذلك الحادث المشؤوم، الذي راح فيه أخ شهيد الحب الأثيم قتيلًا بيد أخيه، ولم يكفها ذلك بل جعلت تدعو البغايا والممثلات والراقصات إلى نهج منهجها، وسلوك السبيل السوي الذي سلكته.

وكان "ميخائيل" العاشق القاتل ساعدها الأيمن ورفيقها في ذلك الجهد المشكور، بعد أن تاب مثلها، وعزم من جهته على أن يكفر عن سيئاته الماضية.

وبعد أن شيدت تيودورا تلك الدار الفخمة على ضفاف البوسفور، وجمعت فيها خمسمئة من الممثلات والراقصات والنسوة المتهتكات، أقامت صديقها "ميخائيل" مراقبًا على الدار، من قبلها ومن قبل الإمبراطور يوستينيانوس زوجها.

وذهبت إلى أبعد من ذلك، فجعلت تبحث لأولئك النسوة التائبات عن أزواج بين خدم القصر وجنود الحرس، وترغم كل من أراد الزواج من أتباعها على اختيار رفيقة حياته من ساكنات "دار التوبة" كما كانت تسميها.

وقد جلس الإمبراطور يوستينيانوس على عرش بيزنطة ثمانية وثلاثين عامًا، من سنة ٥٢٧ إلى سنة ٥٦٥ للميلاد، وكان في خلالها من الملوك المنصفين العادلين.لكنه ظل جاهلًا ذلك الحادث الذي حمل

زوجته على تشييد تلك الدار "دار التوبة"، كما ظل جاهلًا لكثير من الأسرار التي تضمها جدران قصره.

وبعد موت تيودورا، بكاها "ميخائيل" عشيقها وصديقها ورفيقها في جميع أطوار حياتها، وأفشى ذلك السر الرهيب وقص على الناس قصته ومقتل أخيه وتوبة الإمبراطورة.

السلطان في القفص

"اللهم مالك الملك، تؤتي الملك من تشاء، وتنزع الملك ممن تشاء، وتعز من تشاء، وتذل من تشاء".

الحياة تجديد، وسنة العمران تقتضي الهدم والبناء.

انهزمت جيوش، وانقرضت أمم، واضمحلت دول، وقامت على أنقاضها دولة الأتراك الفتية١٣٧٨.

تدفقت جحافل السلطان مراد الأول تدفق السيل المزبد الجارف، فأغرقت في خضمها سهول الأناضول، واكتسحت مدنه العامرة، ودكت جباله وحصونه، وجعل الغزاة الظافرون يتطلعون إلى القسطنطينية، ويطمعون في الاستيلاء عليها والقضاء على دولة الأروام فيها.

وكان يرافق السلطان في روحاته وغدواته ابنه البكر الشجاع الأمير بايزيد، زعيم الفرسان وقائدهم في حومات القتال.

وقعت عليه أنظار "هيلانه" الجميلة ابنة القائد الرومي "ميليناس" في أثناء مفاوضة بين الرجلين، على إثر انتصار جديد أحرزه بايزيد على أعدائه، فعلق به قلبها، وهامت تلك الفتاة الشقراء بحب ذلك الفارس الأسمر.

هجر النوم جفنيها، وساورتها الأحلام، وغلت في جسمها البض الفتي مراجل الشهوة، فلم تعد تطيق صبرًا على حمى الغرام.

العقبات كثيرة في سبيل إرضاء تلك الشهوة، وإجابة دعاء ذلك الغرام. لكن الحب أعمى، والمرأة إذا أحبت لا تحكم العقل، ولا تقدر العواقب!

وفي ليلة ليلاء، تحت ستار ظلام مدلهم حالك، هجرت هيلانه أهلها، ورحلت عن ديارها، ولحقت بالفتى الآسيوي الذي تسلط على شعورها وملك قيادها.

***

١٣٨٩

التحمت جيوش الأتراك وجيوش الإفرنج في معركة دموية في سهول "قاصوي" فسقط مراد الأول في الميدان، وتناوله المنجل الحاصد سنبلة بين السنابل.

وكان بايزيد على رأس فرسانه، فالتف الجيش حوله، ونادى به الجنود سلطانًا خلفًا لأبيه، وهتفوا باسمه بين صليل السيوف وقرع الطبول.

وتضاعف نفوذ هيلانه الفاتنة، بعد أن كانت خليلة الأمير سرًا، صارت عشيقة السلطان جهرًا.

وكانت الفتاة من أمة جبلت نساؤها على المكر والخداع، ومهرن في طرح الشباك للصيد في الماء العكر، ونبغن في حبك خيوط المكائد والدسائس.

اختلت هيلانه ذات يوم بعشيقها، ودار بين الاثنين حديث مقتضب:

- رأيت أمس حلمًا مريعًا أخشى أن يتحقق، وأرتعد خوفًا عليك يا حبيب!
- أي حلم هذا؟
- رأيت أخاك "يعقوب" يشب عليك وأنت راقد في فراشك، فيطعنك بخنجره؛ لكي يخلو له الجو من بعدك، ويتبوأ العرش الذي أنت جالس عليه.
- أضغاث أحلام!
- لا تقل هذا، فما أكثر الأحلام التي تحققها الأيام!
- وماذا تريدين أن أصنع؟
- أن تبطش بهذا المزاحم المزعج، قبل أن يبطش بك!

وفي مساء ذلك اليوم، مات الأمير يعقوب، شقيق السلطان بايزيد، خنقًا في حجرته.

***

وبعد أيام دار بين العشيقين حديث آخر:

- حلمت أمس حلمًا يخيفني أكثر من الحلم السابق.
- قصيه علي.

- رأيت "مانويل" ابن الملك "جان باليولوج" سيد الأروام وحاكم القسطنطينية، يقودك مكبلًا بالحديد إلى داخل أسواره، ويلقيك حيًا طعامًا للكلاب!

- وماذا يتحتم علي؟

- أن تختطف هذا الأمير من قصر أبيه، وتحتفظ به رهينة بين يديك!

- وكيف السبيل إلى ذلك؟

- دعني أفعل، سأجيئك به إلى مضربك صاغرًا ذليلًا.

كانت هيلانه تحب مانويل، لكنه أعرض عنها، فسعت إلى لانتقام منه، واغتنمت تلك الفرصة السانحة.

دخلت مدينة الأروام، ولفقت لهم حديثًا كله كذب في كذب، فحملت الأمير مانويل على الخروج بشرذمة من رجاله، فوقع الجميع في كمين أقامه الأتراك، وجيء بالشاب أسيرًا مقيدًا إلى مضرب بايزيد.

فاضطر ملك الأروام إلى دفع جزية وافتداء ولده بأموال كثيرة.

***

١٣٩٦

سحق السلطان بايزيد جيوش الإفرنج سحقًا في واقعة نيكوبوليس، وعاد إلى وضع الحصار على القسطنطينية، مقسمًا ألا يذوق راحة إلا بعد أن يقتحم أسوارها.

لكن عدوًا جديدًا لم يكن بايزيد يحسب له حسابًا، ظهر فجأة وراء جيوش الأتراك المظفرة، وهدد مملكتهم بما كانوا يهددون به الممالك.

ذلك العدو هو تيمورلنك الفاتح التتري، الذي خضعت له شعوب الشرق قاصيها ودانيها، والذي قيل له إن هناك في بطاح الأناضول سلطانًا يدعي أنه أشجع الشجعان وأفرس الفرسان، فجد ساعيًا إليه طالبًا منازلته في الميدان.

فطن بايزيد إلى الخطر الداهم، فجمع خواصه وأمراء جيشه، وأصدر إليهم أوامره برفع الحصار عن مدينة الأروام، وحصر جهودهم في صد الغزاة، وطردهم عن أطراف الأناضول.

***

١٤٠٢

أنقره، مدينة الذكريات، قلب الأناضول النابض، ميدان الحوادث الجليلة، والمعارك الفاصلة.

في ذلك السهل المنبسط، بين تلك الآكام والأنجاد، أعد بايزيد نفسه للقتال، وربض منتظرًا قدوم المهاجمين.

فوفد عليه تيمور لنك بأربعمئة ألف فارس يشرعون الرماح، وستمئة ألف راجل يشدون إلى الأقواس النبال.

ودارت الدائرة على الأتراك، فوقع السلطان أسيرًا، وتشتت رجاله لا يلوون على شيء، وسالت الدماء، وارتفع العويل، وصعدت من الصدور

الزفرات، جيء بالمغلوب إلى الغالب، فأكرمه وأجلسه إلى جانبه، وسأله:

- ماذا كنت تصنع بي لو ظفرت بجيشي ورأيتني الآن أسيرًا بين يديك؟

فأجاب بايزيد:

- كنت أحبسك في قفص من حديد، وأطوف بك في مملكتي.

فقال تيمورلنك:

- وهذا ما سأصنعه بك، حتى يقضي الله أمرًا كان مفعولًا.

وعاد الفاتح إلى بلاده، ومعه السلطان في قفص!

***

١٤٠٣

مضت سنة وبايزيد في سجنه الحديدي، يبكي ملكه الضائع، وحريته المسلوبة، والغيظ يأكل أحشاءه. سامه عدوه القاسى أنواع الذل والهوان، وطاف به في أنحاء مملكته، وعرضه على أنظار رعيته، وسمح للناس أن يبصقوا في وجهه، وأن يوجهوا إليه ما شاؤوا من الإهانات.

وفي ذات يوم، دخل على تيمورلنك حاجب، وقال:

- مولاي، بالباب فتى يطلب المثول بين يديك، ويقول إنه غريب عن هذه الديار، وإن لديه ما يفضي به إليك سرًا.

فأمر تيمورلنك بإدخال ذلك الغريب، وإذا بفتى أمرد بهى الطلعة، يتقدم نحوه خاشعًا، ويلقي بنفسه على قدميه باكيًا منتحبًا:

- من أنت وماذا تريد؟
- أنا..

تردد الفتى لحظة، ثم نزع ثوبه عن صدره وقال:

- لست كما تظن أيها المولى، إنما الماثل أمامك فتاة مسكينة، جاءت تطلب منك رجاء هو آخر رجاء لها في الحياة.

فانتفض تيمور لنك وقال:

- أفصحي!
- أنا حبيبة السلطان بايزيد، أسيرك المحبوس في قفص، جئت لأشاهد حبيبي للمرة الأخيرة.

فنهض تيمورلنك، واقترب من الفتاه الشجاعة، وقد أكبر إقدامها، وقال:

- لا أرفض إجابة رجائك، إليك ما تطلبين.

ونادى حاجبه، وأمره بالسير مع الفتاة إلى حبيها في قفصه.

***

وصلت هيلانه أمام ذلك الذي أحبته وخانت عشيرتها من أجله، فأجهشت بالبكاء وأبكت الأسير معها.

ثم رفعت رأسها، وقد لمع في عينيها بريق لم يعهده بايزيد فيهما من قبل، وقالت له بصوت ثابت، ولهجة صارمة:

- بايزيد، وصلت إلينا أخبارك، وعلمنا بما ألحقه بك هؤلاء البرابرة من صنوف العذاب، وهاقد جئتك اليوم حاملة إليك رجاء عشيقة لا تطيق العيش بعيدة عنك. بايزيد، لا أمل في إنقاذك من مخالب هؤلاء الوحوش، فضع حدًا للعار الذي تعيش فيه. اقطع حبل حياتك بيدك، ما دام عودك لا يمن عليك بالموت الذي يخلصك من هذا العذاب، إنني أنتظر، وسأموت معك هنا على مرأى منك.

فلم يدعها بايزيد تسترسل في كلامها، بل قاطعها قائلًا:

- صدقت يا هيلانه، الموت خير من الحياة الذليلة، الوداع يا حبيبتي الوداع.

ووثب السلطان الأسير على حديد قفصه، فضرب رأسه عليه ضربة فجت جمجمته، وسقط يتخبط في دمه!

فصاحت هيلانه صيحة مفجعة، وتناولت خنجرها وأغمدته بين ثدييها.

***

وأمر تيمورلنك بدفن الجثتين في لحد واحد، فتعانق الحبيبان عناقهما الأخير، بين أحضان الثرى وفي سكون الموت!

فتاة أركول

جلس القواد في مضرب بونابرت، القائد الشاب، في السهل المنبسط على مقربة من قرية ريفولي الإيطالية. وجعل كل منهم يقوم بالعمل الذي عهد به إليه: هذا يرسم خريطة نقلًا عن مذكرات بونابرت، وذاك يعيد النظر في حساب فرقته. وكان القائد العام يوجب إتقان جميع الأعمال، الأمر الذي أكلأ أعين الضباط والمتعهدين حذرًا واحتراسًا.

١٧٩٧ سنة خطها جيش الثورة الفرنسية بأحرف من نار على صفحات التاريخ.

كان الجيش الذي سيرته الجمهورية لغزو إيطاليا في حالة يرثى لها، وكان الجنود بعيدين عن وطنهم، معتصمين في جبال "الأبنان" بين الصخور والآكام، وليس لديهم من الطعام إلا ما يسد به الرمق، ومن الملابس إلا ما يستر عورتهم، ومن السلاح بنادق قديمة وثلاثون مدفعًا، وعددهم لا يربو على الثلاثين ألفًا.

وكان أمامهم ستون ألفًا من النمساويين ومئتا مدفع، فثبتوا لهم رغم ذلك، منتظرين إنقاذهم من هذا المأزق الصعب بتعيين قائد كفء، يعيد لهم عزهم ومجدهم العتيد، حتى أرسلت لهم الجمهورية بونابرت، وهو لم يتجاوز بعد الخامسة والعشرين من العمر.

جاءهم هذا القائد الشاب، فلاقوه جميعهم بفتور ووجوه عابسة،

وهزؤوا به عند ما رأوه نحيل الجسم، لا يستطيع الثبات على متن جواده.

ولكن ما لبثوا أن تجلت لأعينهم مواهب القائد العظيم تجلي الشمس الباهرة، فأخذ بعزيمة ماضية، وإرادة نافذة، وجهاد سمتمر، في إصلاح ما أفسدته الأيام، وتنظيم ما أخلت به الظروف والأحوال.

عالج الرجل نفوس جنوده اليائسة، ملتمسًا إلى قلوبهم مسالك الأمل والرجاء، مطلقًا أعنة خيالهم إلى مستقبل مجيد زاهر، يمنيهم بطيب الأمانة وحلو الهناء، حتى اكتسب أفئدتهم، وملك قيادهم، فصرفهم إلى ملتمسه وبغيته في مقاتلة الأعداء، فاندفعوا خفافًا سراعًا شجعانًا، لا تأخذهم مخافة، أو ينالهم جبن، أو يلوي بهم روع، ملئت بمقاتليهم الأرجاء أو أمطرتهم بهم السماء.

هكذا كانوا في الشهر الأول من سنة ١٧٩٧، بفضل ذلك القائد العظيم، يتنقلون من ميدان إلى آخر، لا تفتر لهم عزمة، أو تقعد بهمسآمة، يهبطون وهدًا، ويصعدون نجدًا، مقاتلين مجاهدين، وأعلام النصر خفاقة فوق رؤوسهم.

كانت جحافلهم تجتاز ظافرة تلك الربوع التي شاهدت انتصارات روما، وتلك الجبال والأودية التي طالما رددت صدى هتاف الفيالق الرومانية، وأشجار الغار التي أدلت إلى القياصرة أوراقها أكاليل، تطوق أغصانها جباههم المرتفعة عظمة وجلالًا.

اندفع جيش الثورة على المدن الإيطالية، يقوده الشاب الثائر بونابرت، فلم يحل دونه جيش حائل إلا ومزقه تمزيقًا، وكانت السيدات

يتقدمن ويمسكن بأعنة الخيول، فتضمد على صدورهن جراح الجنود الدامية.

هناك، في إحدى تلك المعارك الهائلة، وجد الكابتن "جوروك" الفتاة "ماري" البائعة في الجيش، فأحبها وأحبته، وتعاهد العاشقان على الزواج عندما تضع الحرب أوزارها.

***

كان القواد منصرفين في مضرب القائد، كل إلى عمله، وإذا بصوت رخيم ينادي، بل يهمس من الخارج:

- كابتن دوروك، كابتن دوروك.

رفع الضابط رأسه وأجاب:

- من المنادي؟

فضحك أحد الضباط وقال له مازحًا:

- سرعان ما نسيتها! ألا تعرف صوت حبيبتك؟

ولكن الصوت أعاد الكرة:

- أنا يا دوروك، انا ماري!

- ماري؟ تعالي، ادخلي.

نهض دوروك مسرعًا إلى الباب، فرفع السدافة، وظهرت الفتاة بثوبها العسكري.

- أوحيد أنت هنا؟

ولما وقع نظرها على القواد الآخرين، ترددت في الدخول قائلة لخطيبها:

- ظننتك منفردًا!

لكنه أمسك بها، ونهض الباقون وقد أنهكهم التعب، فأحاطوا بالفتاة، وأخذ كل منهم يقنعها بالبقاء:

- ادخلي يا سيدتي، ابقي فلا شاغل عنك، لن يعود القائد العام قبل نصف ساعة.

زال حينئذ اضطراب الفتاة فدخلت، وقدم لها أحدهم مقعدًا خشبيًا فجلست، لكنها أرسلت أنه ألم، ووضعت يدها على كتفها، فانتفض دوروك وسألها:

- مابك؟ أمريضة أنت؟

فأجابته والألم بادٍ على وجهها:

- كلا، لكن جرحي القديم قد انتقض علي، فذهبت إلى طبيب الفرقة للمداواة، وها أنا عائدة من خيمته.

فسألها الضابط "لافاليت" وكان حديث العهد في الجيش:

- أجريحة أنت يا سيدتي؟

فرد عليه دوروك قائلًا:

- نعم، هي جريحة. ولعلب إثر إصابتها بذلك الجرح عرفتها واتخذتها خطيبة لي.

فنهض لافاليت، وكان لا يزال جالسًا إلى مكتبه، وصافح الفتاة مصافحة الزميل للزميل، والجندي للجندي.

- والآن، لي رجاء أفضي به إليك يا سيدتي، إنني حديث العهد في هذا الجيش، ولم يذكر اسمك أمامي قبل الآن، فأرجو أن تقصي علينا قصتك، وتخبرينا خبرك، في تلك الموقعة التي أصبت فيها بهذا الجرح.

فترددت الفتاة، لكن القواد ألحوا عليها، ودعم دوروك طلبهم برجائه، فنهضت "ماري تاردي" وقد أنستها ذكرى تلك الموقعة الهائلة ما تقاسيه من ألم مبرح، وقصت على أولئك الأبطال ما حدث لها في معركة "أركول":

- كان الجيش يحاول اجتياز جسر أركول بقيادة بونابرت، والنمساويون يمانعونه إياه، مستعينين عليه بما حضرهم من آلات الدفاع وأدوات الهلاك، فقصفت فينا رعود مدافعهم، وانقضت علينا صواعق قنابلهم، وأمطرتنا شظايا رصاصهم وحديدهم، وكنا نحن النساء اللاحقات بالجيش قد انتحينا ناحية من ميدان القتال، ننظر إلى الجنود في هجومهم ووثباتهم، ونشاهد جمالهم وعظمتهم في ثورتهم وغضباتهم، وإن هي إلا ساعة، وقد شغل عنا الجميع وأصبحنا في عزلة عنهم، حتى طلعت علينا شرذمة من النمساويين

تريد مفاجأة رجالنا من الوراء والإحاطة بهم، فصحت بصويحباتي، وكنت أولى من أخذتهم عيني منادية: "يا للأعداء!" فأسرعن إلى التقاط بنادقهن، وانتظمن صفًا متساويًا مرصوصًا قبالة المهاجمين، وتماسكن لهم سدًا منيعًا.

فصفق القواد استحسانًا وإعجابًا، واستطردت ماري في حديثها:

- وواصلناهم برصاصنا الفتاك، يتناولهم كالمنجل الحاصد، حتى أزحنا أحياءهم عن مراكزهم ورددناهم إلى مقرهم خائبين. وكان الخبر قد بلغ الجيش فأسرع دوروك إلينا برجاله، وكنت قد أصبت في أثناء القتال بجرح بليغ في كتفي.

وهنا توقفت ماري عن الكلام، فالتفت دوروك إلى أصحابه وقاله:

- وصلنا إليهن فرأينا يا رفاق عشرة من نسائنا يطاردون المئات من رجالهم، وشاهدنا فيهن عظمة أمهاتنا وفيهم جبن آبائهم، وكانت عزيزتي ماري في مقدمتهن على تلك الرابية، كما كان بونابرت في مقدمتنا على جسر أركول، في تلك الظروف رأيت ماري للمرة الأولى، وفي تلك المعركة الدموية التي انتهت بانتصارنا انتصارًا باهرًا، وبهزيمة الأعداء هزيمة شنيعة، وضعت على جبين هذه الفتاة القبلة الأولى. ومنذ لك الحين أطلق عليها الجيش لقب "فتاة أركول" وبرنابرت نفسه لا يناديها باسم غير هذا.

فهنأ القواد رفيقهم وخطيبته، وهتفوا هتافًا عاليًا لماري الشجاعة الباسلة "فتاة أركول".

انتهت معركة "ريفولي" بانتصار جديد أضافته جيوش الثورة إلى انتصاراتها السابقة، ووقف القائد نابوليون بونابرت فوق رابية تشرف على ميدان القتال، وجعل القواد يفدون عليه مهنئين، والجنود يمرون أمامه منشدين الأناشيد.

وبينما هو كذلك، يحيط به الضباط من أركان حربه، وإذا بجنديين يحملان جثة ملفوفة في علم ممزق، يمران على مقربة منه، فناداهم سائلًا:

- من الجريح؟

فأجابه أحدهما:

- هو قتيل يا جنرال!

- من هو؟

- فتاة أركول!

فادلهم وجه القائد، والتفت إلى أركان حربه باحثًا عن دوروك، فرآه واقفًا في مكانه لا يبدي حراكًا، وقد وقع عليه هذا النبأ المقتضب وقع الصاعقة. فتقدم إليه بونابرت وأخذ بيده، وأشار إلى الجنديين بأن يقتربا بجثة الفتاة، فوضعها أمام قواده، وحياها التحية العسكرية، وقال:

- دعوها هنا، لأنها فتاة شجاعة، ويجب أن تشهد ميتة الانتصار الذي لم تشهده حية!

وكان قواد الجيش قد أحاطوا برئيسهم، فوقف فيهم خطيبًا، أمام

تلك الجثة الهامدة، وفاه بهذه الكلمات التي دونها التاريخ في صفحاته، وتناقلنها الألسنة من بعده جيلًا عن جيل:

"أيها الجنود، لقد اندفعتم من أعالي جبال الأبنان كالسيل المتدفق الجارف، فعلوتم الحواجز الحائلة، وجزتم العقبات المعترضة لكم في منطلق السبل، لا توقفكم قوة، أو توهن عزائمكم مشقة، وقد كانت المصاعب جمة، فلم تخنعكم إلى يأس أو جبن أو إحجام، بل حزتم النصر بلا مدافع، وعبرتم النهر بلا مجاز، وطويتم المفاوز الشاسعة بلا أحذية ولا نعال، وضربتم المضارب في العراء تحت مجرة من الأمطار، وفي مهب من الرياح، ووسط تلال من الثلج، فإن ما تحملتموه من العذاب والآلام لا يستطيعه إلا جنود الحرية ورافعوا لوائها".

***

ودفنت ماري تاردي في ساحة القتال، وهي ابنة الجندي جان تاردي، الذي لحق بنابليون بونابرت إلى مصر، وقتل في الثالث والعشرين من شهر أكتوبر سنة ١٧٩٨ في ثورة القاهرة.

خليلة الشاعر

منذ سنة ١٠٢٥ للميلاد، خضع سكان سلوفاكيا للشعب المجري وظلوا مستعبدين إلى سنة ١٩١٨.

ومنذ سنة ١٥٤٥ للميلاد، خضع التشك سكان بوهيميا، لسلطان النمسا وظلوا مستعبدين إلى سنة ١٩١٨.

لكن الشعبين لم يداخلهما اليأس، ولم يتسرب إليهما القنوط، بل ظلا في جهاد مستمر مدى الأعوام والأجيال، إلى أن كتب لهما النصر، وتحققت تلك الأماني القومية التي علل الشعبان النفس بها: الحرية والاستقلال وتحطيم الأغلال!

دالت دول وقامت دول، واندثرت شعوب وعادت إلى الحياة شعوب. وما إن وضعت الحرب العظمى أوزارها، حتى رأينا دولة السلوفاكيين والتشك تستعيد كيانها القومي بين الأمم، وتختار لنفسها النظام الجمهوري، وتنتخب رئيسًا لها رجلًا من عامة الشعب، قضى حياته مجاهدًا في سبيل قومه ووطنه: "توماس مازاريك".

وأطلق السلوفاكيون والتشك على جمهورتهم الفتية اسم "تشكوسلوفاكيا" وجعلوا مازاريك رئيسًا عليهم مدى الحياة. وأعادوا إلى "براج" عاصمتهم القديمة التاريخية مجدها السالف وعزها الماضي. ومشوا جنبًا إلى جنب مع الأمم القوية العظيمة، في مدارج الرقي

والحضارة، وقد صهرتهم الحوادث وعركتهم الاضطهادات التي عانوا آلامها، من عهد أباطرة هابسبورج الأولين، إلى عهد فرنسوا جوزيف العجوز وشارل الخامس الفتي.

***

وتاريخ سلوفاكيا وبوهيميا –أو تشكوسلوفياكيا كما يسمونها الآن– سلسلة رائعة دامية من الثورات والإحن والقلاقل والمذابح.

والباحث في سجلات تاريخ القوم المفعم بعظائم الأمور وجلائل الأعمال، يعثر على القصة الآتية، التي تنم عن ما جبل عليه ذلك الشعب الأبي من الأنفة والشمم:

أصدر الأمير فردريك حاكم بوهيميا وطاغيتها المستبد، أمره بإلقاء القبض على "زاتك" الشاعر الشاب، المندفع في تيار الوطنية اندفاع أضرابه الشبان فيه، بسبب نشيد وضعه ذلك الشاعر، وأهاب فيه ببني قومه أن هبوا من رقادكم أيها النيام، فقد آن الأوان لخلع نير العبودية عن أعناقكم، ونزع أصفاد الذل من معاصمكم، والتطلع إلى الشمس الوهاجة، التي تشرق على وطنكم كما تشرق على النمسا، والتى يحق لكم أن تحتلوا مكانكم تحت نورها، شاء مستعبدوكم أم أبوا!

ردد البوهيميون أنشودة الشاعر في كل حدب وصوب، ولعلعت أنغامها في فضاء ذلك الوطن التعس المعذب كالبروق الخاطفة، فهب الشعب كبيرة وصغيرة، في المدن والقرى والجبال والحقول، هبة الرجل الواحد، وهاجمت جموعه العاصمة القديمة "براج" ذات التاريخ العريق

والمجد الأثيل، وانتزعت أيدي الثائرين تمثال الإمبراطور النمساوي عن قاعدته، وألقته في الشارع، ولوثته بالوحول والقاذورات.

لكن النمساويين كانوا على أهبة وحدة لإخماد نار الثورة في البلاد؛ لأنهم كانوا يعلمون مبلغ كره القوم لهم، ويبثون في المدن والأقاليم حاميات كثيرة العدد، متوفرة العدد؛ استعدادًا للطوارئ وخوفًا من المفاجآت.

وأخمدت تلك الثورة كما أخمدت غيرها من قبل، بالحديد والنار، وغصت السجون بالمقبوض عليهم من وجوه القوم وقادة الرأي فيهم، وجاور الأبرياء منهم المذنبين.

وكان الشاعر زاتك أول من ساقه الجند إلى الحاكم العام النمساوي، الأمير فردريك، القاسي الفؤاد.وما وقع نظر الأمير على الشاعر، حتى هاجت في صدره كوامن الحقد، وعقارب الغيرة؛ ذلك لأن الشاعر زاتك كان أشد أعداء الإمبراطورية خطرًا، وأبعد الوطنيين البوهيميين حماسًا، وكان يحب المرأة التي كان الأمير نفسه يحبها أيضًا، وكانت تلك المرأة الجميلة الفاتنة تميل إلى ابن جنسها زاتك، وتفضله على الحاكم الأجنبى الدخيل.

نظر فردريك إلى الشاعر الثائر، وتطاير الشرر من عينيه، وصاح به قائلًا:

- ستلاقى جزاءك يا ابن اللئام في قلعة سبلبرج، حيث أمرنا باعتقالك مدى الحياة!

- وأمر زبانيته بأن يبقوا الشاعر الأسير في قصره إلى أن يبت في أمره.

وما كاد الجنود يخرجون بالأسير، حتى دخل حاجب، وقال لمولاه إن امرأة باكية تصيح أمام باب القصر طالبة المثول بين يديه.

أذن فردريك بإدخالها فدخلت، وإذا به أمام المرأة التي يحبها، "زوفكا" الحسناء البارعة الجمال، خليلة الشاعر زاتك، وعدوة النمساويين، وصديقة جميع العاملين لخير بوهيميا ولإنقاذ التشك من نير الأجانب.

ألقت المرأة نفسها على الأرض، وأكبت على قدمي الحاكم النمساوي تقبلهما، وتسكب عليهما الدموع، وتصعد الزفرات قائلة:

- الرحمة، الرحمة يا مولاي! أشفق عليه! اعف عنه!

فنهض الأمير من مكانه، وأخذ المرأة بذراعها، وهمس في أذنها:

- إنك تحبينه كثيرًا، تحبينه إلى حد ما كانت أتصوره وأتخيله يازوفكا، انهضي، انهضي وخففي من روعك!

نهضت المرأة وجعلت تحدق البصر في الحاكم الغريب، وقد هالها مجرد التفكير في أن حبيبها سيطرح في سجن القلعة في سبلبرج، ذلك القبر الذي يدخل إليه المعتقلون ولكنهم لا يخرجون منه أبدًا!

وقال الأمير النمساوي:

- إن الشاعر زاتك عدو خطر، وطالما حذرته من الاسترسال في غوايته والإمعان في ضلاله. لكنه لم يصغ إلي ولم يرعوِ، فلا سبيل معه إلى الرحمة والشفقة! أعلم يا سيدتي أنك خليلته وأنك تحبينه، وكل ما أستطيع صنعه هو أن أسمح لك برؤيته للمرة الأخيرة، قبل

إرساله تحت الحفظ إلى قلعة سبلبرج، مقره إلى الأبد!

وأمر الحاكم بإدخال الشاعر فجيء به، وكان رافع الرأس، شامخ الأنف، براق العينين، موثق اليدين. وخيل إلى زوفكا الحبيبة الحزينة أن نظرها لم يقع قبل ذلك اليوم على رجل أجمل من هذا!

ودار بين العدوين، الأمير والشاعر، الحديث الآتي:

- هل أنت واضع النشيد الذي يردده التشك في هذه المقاطعة النمساوية، ويتغنون به في كل مكان؟

- نعم، أنا واضع التشيد الذي يردده التشك في وطنهم المستعبد، ويتغنون به في ربوعهم الخضراء، وجبالهم الشامخة!

- وإلى من أردت أن تسيء في نشيدك هذا؟

- إلى النمسا، وإليك يافردريك، يا ممثل الطغاة ومندوب السفاحين!

- أتعترف بذنبك؟

- أعترف بما صنعت، ولك أن تسمي ذنبًا جهاد فرد في سبيل حرية وطنه واستقلاله.

- إنك لوقح!

- الوقح من يعتدي على حقوق الغير!

- سأخفض رأسك وكبرياءك!

- أما رأسي فيمكنك أن تخفضه أمام سيف الجلاد، وأما كبريائي فلن

تستطيع قوة في العالم أن تخفضها!

- لقد أردت أن تجعل الأمير فردريك سخرية بين أبناء جلدتك، والأمير فردريك بدوره سيجعلك يا زاتك سخرية بين الناس أجمعين، وسوف نرى ونضحك كثيرًا!

وأشار الأمير إلى اثنين من رجاله فتقدما، وأمسك كل منهما بذراع الشاعر، وساقاه أمامها إلى حجرة مجاورة.وأرادت زوفكا أن تلحق بحبيبها، فحال الجنود بينها وبين رغبتها، فوقفت في مكانها مصغية مرتجفة شاحبة!

ساد في المكان سكون كسكون القبور، ثم سمع صرير مزعج، ووصلت إلى أذن المرأة من خلال الجدران تنهدات وزفرات، وخيل إليها أنها أمام قبر يتصاعد منه أنين عميق، ومرت الدقائق كأنها أجيال!

وفتح الباب من جديد، ودفع الجنود إلى داخل القاعة شخصًا ممزق الثياب، ملطخًا بالدم، مجدوع الأنف، مقطوع الأذن!

ورفعت زوفكا يديها إلى وجهها، كيلا يقع نظرها على ذلك المشهد الهائل، وصاحت صيحة عالية، وارتفعت في آن واحد، في جو ذلك المكان، قهقهة الأمير وحاشيته!

زاتك الشاعر الجميل أصبح الآن خرقة آدمية بالية، تسيل منها الدماء، وتشمئز من النظر إليها العيون!

وقال الأمير:

- سيهزأ منك الناس كما أردت أن يهزؤوا مني!

ثم التفت إلى المرأة وصاح:

- هذا هو حبيبك أيتها الحسناء، انظري إليه، وليتبعه حبك إلى حيث يذهب!

وشعرت زوفكا بعواطف متباينة متضاربة تتلاطم في صدرها، أتلقي بنفسها بين ذراعي حبيبها المهشم الممزق؟ أم تشيح عنه بوجهها؟ وبينما المرأة تتخبط في حيرتها، ارتفع من جديد صوت الأمير فردريك صائحًا:

- والآن، احملوا هذا المهرج البشع إلى سجون سبلبرج.

فردت عليه صيحة مفحمة، صيحة لا تنطلق إلا من حنجرة الحيوان المفترس، الذي يحيط به الصيادون من كل جانب، صيحة هائلة مخيفة. أرسل زاتك المسكين تلك الصيحة، وأراد أن يقترب من حبيبته وخليلته، لكنها أعرضت عنه، ورفعت عينيها إلى الأمير الجميل، الممتلئ صحة وعافية، الجالس على مقعده الوثير، وارتسمت على ثغرها ابتسامة حلوة، ابتسامة الرضى والارتياح!

***

ثمانية أيام مرت على الشاعر زاتك في سجنه المظلم، في تلك البئر المحفورة في الصخر، التي يلقى فيها الأسرى المساكين، ولا يرون النور إلا من كوة صغيرة في سقف البئر العميقة.

ثمانية أيام مضت عليه، وهو لا يفكر في آلامه وما قاساه من عذاب، أكثر مما يفكر في تلك المرأة الخائنة، التي لم تنتظر خروجه،

بل ألقت بنفسها بين أحضان عدوه، وصفعته تلك الصفعة المؤلمة، أمام ذلك الجمع من القواد والجنود؟

وكان الشاعر يردد قول القائلين: إن المرأة لا يؤمن شرها.

وسمع فجأة حركة في سقف البئر، رفع نظره، فأخذت عيناه نورًا ضئيلًا من خلال الثقب الصغير.وارتفع غطاء البئر، فعم النور ذلك المكان الذي لم تر أرضه النور منذ سنوات.

وظهر رجل، وظهرت بجانبه امرأة، وتكلم الرجل، وتكلمت المرأة، فعرف زاتك صوته وصوتها. الأمير الغريب والحبيبة الخائنة!

كانت تقول له:

- انظر يا معبودي العزيز، انظر إلى عدوك في قبره، لقد قضيت عليه وأنا أحبك من أجل هذا يا معبودي العزيز!

هذا الصوت صوتها، يا للمخلوقة القذرة! إنها تعانق الأمير. لقد جاءت تهزأ بالسجين المعذب المسكين، جاءت تعطيه برهانًا جديدًا، حسيًا ملموسًا، على خيانتها وفسقها.

لم يتمالك الشاعر نفسه، فصاح من أعماق قبره:

- عليك اللعنة يا ابنة حواء! عليك ألف لعنة أيتها الفاجرة! عليك لعنة الله ولعنة الوطن معًا!

ولكن ماذا حدث؟

صرخة مرتفعة، استغاثة خوف ويأس، شيء يهوي من أعلى البئر إلى أسفله، جسم يسقط بجانب السجين الهائج!

وصوت زوفكا يصيح:

- آه! زاتك، حبيبي زاتك! ما رأيك في هذا؟ أما أحسنت في انتقامي لك؟ خذه خذه! الطاغية بين يديك الآن، ألقيت به في البئر، فاخمد أنفاسه إذا كان لا يزال على قيد الحياة، اقتله، انتقم لنفسك كما انتقمت لك من عدوك!

نظر زانك إلى الجسم الملقى بجانبه، فإذا به أمام الأمير فردريك، الحاكم النمساوي الغليظ الكبد، الذي عذبه وسجنه وأغرق وطنه في بحر من الدماء.

فاقترب السجين من الطاغية، وجثا على ركبتيه، وقال بهدوء:

- انظر، انظر يا فردريك ماذا صنعت بي! لكنك الآن في قبضتي، وسأنتقم منك لنفسي ولجميع الضحايا الذين سفكت دماءهم الزكية، سأقتلك، ستموت خنقًا بيدي!

وقالت زوفكا:

- أسرع، أسرع قبل أن يصل أحد إلى هنا!

فقبض زاتك بيديه على عنق عدوه الأمير النمساوي السفاح، وهم بخنقه.

لكن الأمير رفع رأسه قليلًا، وتنهد، وقال بصوت خافت ضعيف:

- أتألم، أتألم! ماء، أريد جرعة ماء!

ورددت زوفكا بالحاح:

- أسرع، أسرع! أسمع أصواتًا تقترب، أسرع في القضاء عليه قبل أن يدركنا الحرس!

وردد الأمير بصوته الخافت الضعيف:

- جرعة ماء، جرعة ماء! أتألم!

وشعر زاتك الشاعر المهشم المعذب بأن قواه تخونه، وبأن يديه لن تستطيعا خنق عدو ضعيف أعزل يتألم، فنهض على قدميه، وذهب إلى ركن من أركان البئر، كان يضع فيه إبريق الماء، وأسرع إلى جلاده النمساوي، وجثا ثانية على ركبتيه، وأخذ رأس الأمير فردريك بيسراه، وصب له الماء في فمه بيمناه!

هذا ما فعله الشاعر زاتك، ابن بوهيميا المستعبدة بالأمس، الحرة اليوم، بالحاكم النمساوي فردريك دي هابسبورج، وهكذا انتقمت خليلة الشاعر لحبيبها من الأمير الأجنبي الطامع فيها. وهذا ما يقصه عليك الرواة في تشكوسلوفاكيا إذا ما طلبت إليهم أن يحدثوك عن شاعرهم الوطني القومي زاتك النبيل الأبي، الذي صفح عن رجل أراد قتله، وأنقذ حياة جلاده.

ابنة الحداد

أقام اللورد هاملتون، سفير بريطانيا العظمى في نابولي، حفلة استقبال باهرة؛ إكرامًا لقائد الأسطول نلسون، الذي نزل ضيفًا على السفارة الإنجليزية، في طريقه إلى لندن، بعد أن طارد السفن الحربية الفرنسية في البحر الأبيض، وشرد بعضها وأغرق البعض الآخر.

غصت قاعات السفارة بمئات المدعوين من رجال السياسة والجيش والعلم، وبدت "اللادي هاملتون" زوجة السفير في أبهى حلة من الجمال والتأنق. وما وقع عليها نظر القائد البحري الكبير، ولمست يداه يديها، حتى أخذ بسحر عينيها، وشعر بأن سهامًا حادة تنطلق من بين تلك الأجفان، وتخترق صدره وتنفذ إلى قلبه، وإن ذلك القلب الذي لم يعرف الخوف، ولم يخفق للحب، قد أصبح منذ تلك اللحظة لزوجة السيرجون هاملتون الفاتنة عبدًا أسيرًا.

هام نلسون بحب "اللادي هاملتون" هيامًا جنونيًا. وأوشك في كثير من الأحيان أن ينسى واجبه من أجلها. ومرت الشهور والأعوام، وهو يذهب لقضاء مهمة، أو لإحراز فوز جديد يضيفه إلى انتصاراته السابقة، ثم يعود إلى المرأة التي ملكت قيادة وتسلطت على فؤاده، فيقضي بين ذراعيها ساعات، كان ذلك الجندي العظيم يعتبرها ألذ ساعات حياته وأحلاها.

وعلم الزوج بالعلاقة الأثيمة التي تربط زوجته الجميلة بذلك القائد

الشاب، الذي يفوقه قوة ونشاطًا وشهرة وجمالًا، لكنه لم يتعرض للعشيقين، ولم يؤنب زوجته على سلوكها المعيب وخيانتها الفاضحة، بل لزم الصمت ورضي بالأمر الواقع، فدون التاريخ في صفحاته ذلك الحادث الغريب العجيب: زوجة رجل تعيش مع عشيقها في منزل زوجها، وبمعرفته ورضاه!

***

مرت سنوات على ذلك اليوم الذي عرف فيه نلسون عشيقته الحسناء، ولم يحدث في خلال تلك السنوات ما يعكر صفو هنائهما وسعادتهما؛ فإن القائد كان مخلصًا في حبه، وكانت اللادي مخلصة في حبها، وكان زوجها مخلصًا في بقائه على الحياد!

وفى ليلة من ليالي الشتاء، اختلى نلسون بحبيته في حجرتها، وبعد أن ارتشف الاثنان كأس الغرام مترعة، وسكرا نبشوتها، قال الأميرال، وهو يداعب شعر اللادي، وقد استرسلت غدائره على كتفها العاري:

– لي رجاء أريد أن أفضي به إليك أيتها الحبيبة العزيزة، فهل تعديننى بأنك ستطلعينني من جهتك على الحقيقة كلها؟

فأجابت المرأة، وقد طوقت عنق الرجل بذراعيها:

– وهل في استطاعتي أن أرفض لك طلبًا أيها الحبيب العزيز؟

فطبع نلسون على ثغر اللادي قبلة حارة وقال:

– لقد أوغلت الألسنة في التحدث عنك، وإذاعة الأخبار المتناقضة

المتبانية عن ماضي حياتك، فهل لك أن تطلعيني على تلك الحياة وأطوارها؟ وتخبريني بما تخللها من حوادث أيًا كانت؟ إنني أتركك من وقت إلى آخر للذهاب بعيدًا على ظهر سفينتي الحربية، دون أن أعلم إذا كنت سأعود إليك أم لا، وإذا كان يجب علي أن أقول لك "إلى اللقاء" أم الوداع؟! فأريد يا حبيبتي أن ألم بأسرار حياتك جميعها، وأن لا يفوتني شيء من ماضيك. فهل لك أن تطلعيني على ما أرغب في الإطلاع عليه؟

***

فقصت اللادي هاملتون قصتها على الأميرال نلسون، قالت:

– كان أبي حدادًا في قرية صغيرة بإنجلترا، وقد مات تاركًا أمي في حالة من الفقر تدعو إلى اليأس. لكنها كانت شجاعة قوية البنية، فجعلت تشتغل وتبحث لي أيضًا عن عمل أعمله من جهتي؛ لكي نتمكن من القيام بنفقات معيشتنا، فدخلت في خدمة أسرة إنجليزية نبيلة، ثم انتقلت إلى غيرها فغيرها فغيرها، وذقت في كل منها ما لا بد أن تذوقه فتاة خادمة، أفرغت فيها الطبيعة محاسن كثيرة. فقد حام حولي فتيان تلك الأسر الشريفة كما يحوم الذباب حول الحلوى، وشعرت بأن شرفي وعفافي في خطر عظيم.

أفضيت إلى أمي بمخاوفي، فوافقتني على وجوب الانتقال من الأقاليم إلى العاصمة، حيث يتسع ميدان الرزق، وتتعدد أبوابه، فسافرنا إلى لندن، كنا نظن أننا نتقي شرًا، فوقعنا في أسوأ منه!

أدخلتني والدتي في خدمة رجل من الموسيقيين، ثم في خدمة آخر يشتغل بتموين السفن، ففي خدمة طبيب لم يلبث أن طردني من بيته؛ لأنه فاجأني مرة أمام المرآة، أعجب بنفسي، وأتهادى أمام صورتي، وقد ارتديت ثياب زوجته، وحليت عنقي وصدري وذراعي بجواهرها.

ومنذ ذلك الوقت، بدأت أشعر بميل غريب إلى التأنق والتبرج، واستولت علي فكرة لازمتني سنوات عديدة، وهي أن استخدم جمالي للحصول على الثروة والخروج من الفاقة التي كنت أعانيها.

وبعد خروجي من نزل ذلك الطبيب بأسابيع، خدمت في منزل ضابط من ضباط البحرية، ثم انتقلت إلى عيادة طبيب آخر يدعى "جراهام" من أولئك الذين يعالجون المرضى بالتنويم، ومخاطبة الأرواح، وكتابة الطلاسم، وهناك في تلك العيادة المظلمة، كنت أقوم بما يطلب مني الطبيب القيام به، فأنام عندما يأمرني بالنوم، وأصحو عندما يريد ذلك، فذاعت شهرتي في المدينة، وأصبح اسم "إيما" على جميع الألسنة.

وعرفني في تلك العيادة كثيرون من الأشراف والنبلاء والعظماء، وأحاطوني بأنواع التكريم والإغراء والإغواء. هذا يعرض علي مالًا، وذلك يعرض علي جاهًا، وذاك يعرض علي اسمًا مشهورًا، فعثرت قدماي للمرة الأولى، وزلت بي الخطى. فجنحت عن السبيل السوي، ووقعت في الهوة التي كان لا بد لي من الوقوع فيها. وأنا وحيدة في ذلك الوسط الموبوء، لا مرشد لي ولا معين ولا نصير!

أحبني رجل من الأشراف يدعى "لورد جريفيل" ولعلك تعرفه،

فخرجت من خدمة الطبيب جراهام، وأقمت مدة من الزمن في قصر اللورد، وأصبحت خليلته، وبقيت على تلك الحالة أكثر من سنة.

لكن اللورد كان يطمع في التمتع بمحاسني ولا يحبني، وعندما أشبع حواسه من جمالي، ألقاني بين يدي صديقه الرسام "رومنيه"، الذي صنع لك رسمًا بديعًا منذ سنوات.

اتخذني الرسام رومنيه نموذجًا ومثالًا، وبلغ إعجابه بي مبلغًا عظيمًا، وما لبث هو أيضًا أن كاشفني بغرامه كالآخرين. لكنني أعرضت عنه، وأوشكت أن أترك العمل عنده، لو لم يقسم لي أنه لن يعود إلى مكاشفتي بعواطفه، ولن يحدثني عن شيء لا علاقة له بالرسم والرسوم.

وأقام رومنيه ذات يوم معرضًا جمع فيه أبدع ما صنعه في حياته الفنية من صور زيتية، ورسوم خالدة، فتوافد عظماء البلاد على ذلك المعرض، وكنت أستقبل الزائرين وأرحب بهم، فعرفني السير هاملتون، فإننا نخونه الآن، نخونه منذ سنوات وهو عالم بالخيانة راضٍ بها ساكت عنها!

كان هاملتون في ذلك الوقت حديث العهد في سفارة إنحلترا بنابولي، فدعاني إلى زيارته فيها، مع والدتى، وسافرنا إليها بعد رحيله عن إنحلترا بعشرة أيام.

وهناك أقمت في دار السفارة معززة مكرمة، وكان السير العاشق يضع تحت قدمي ثروته وسلطته ونفوذه واسمه ومنصبه، فأحيا الحفلات وأقام الولائم، وتمكنت بواسطته من الوصول إلى الملكة ماري كارولين ملكة نابولي، فلقيت حظوة لديها، وأصبحت صديقة لها، وما مضت

شهور معدودة على إقامتي في نابولي، حتى أحرزت شهرة واسعة، أثارت صدى حسد الكثيرات من نساء الأشراف والسفراء.

وعرفت شاعر ألمانيا "غوث" العظيم، الذي أفاخر بأنه كان من المعجبين بي، وقد كتب عني قطعة خالدة سوف تتناقلها الأحقاب جيلًا بعد جيل.

لكن إقامتي في دار السفارة الإنجليزية كانت موضع قيل وقال؛ لأن الناس كانوا ينظرون إلي نظرهم إلى خليلة السفير التي لا تربطها به رابطة شرعية قانونية، فأدرك هاملتون، وأدركت معه أن بقاء الحالة على ما كانت عليه فيه خطر على سمعة السفير ومنصبه، فعزمنا على أن نعقد زواجنا، وأفضى السير هاملتون إلى الملكة ماري كارولين وإلى أهله وذويه برغبته تلك.

وكان ما كان من صراخ وهياج واعتراض واحتجاج، وحاول الجميع أن يمنعوا ذلك الزواج، وانطلقت الألسنة تعدد مساوئ حياتي وتكشف عن ماضي، وترمي السير هاملتون بالجنون والخروج على تقاليد الأشراف.

لكنه لم يأبه لأقاويل الناس، ولم يحسب لأحد حسابًا، بل ظل متمسكًا برغبته، وفي اليوم السادس من سبتمبر سنة ١٧٩١ عقد زواجنا في لندن، وأصبحت "إيما" ابنة الحداد الوضعية الخاملة، سفيرة بريطانيا العظمى في مملكة نابولي!

ومنذ ذلك الوقت، تغيرت الأحوال بتغير الظروف، وشعرت بأن مركزي الاجتماعي يجب أن يظل مصانًا من العبث، وصرت لزوجي مطيعة

مخلصة، ولبلادي خادمة أمينة. وإذا كنت قد أتيت في حياتي أعمالًا يأباها الشرف وتمجها الأنظمة القائمة، فإنني قد أعقبتها بأعمال أخرى يجب أن تحسب لي وأن يذكرها المؤرخون، عندما يعددون مناقب الأفراد الذين خدموا وطنهم ووضعوا في سبيله نفوذهم. وإذا كانت إنجلترا قد استطاعت أن تحرز في ميدان السياسة، في نابولي وغيرها من الأقطار المرتبطة بها انتصارات تتبعها انتصارات، فإنما الفضل في ذلك عائد إلى الأشخاص الذين كانوا يمثلونها، ويعملون لحسابها، وأنا منهم! وهذا الجمال الفتان، الذي أسر قلوب الرجال في إنجلترا ونابولي وغيرهما، هذا الجمال الفتان، الذي أصبح الآن ملكًا للأميرال نلسون العظيم، قد خدم الوطن الذي انتمى إليه، بقدر ما خدمه نبوغ السياسيين وإقدام القواد!

وقد عرفتك على إثر زواجي أيها الحبيب! فوهبتك قلبي، ووهبتك جسمي، ووهبتك حياتي. وإذا كنت الآن أعلل النفس بأمنية ما، فإنما أعللها ببقائك حيًا تخلص لي الحب، وتخلص لوطنك الخدمة.

لقد حدت مرارًا عن جادة الصواب، وانغمست في الملذات، وأطلقت لشهواتي العنان، وصنعت ما تصنعه النساء المتهتكات. لكنني عدلت بعد ذلك عن سيرتي الأولى، فأنا جديرة بحبك واحترامك.

هذه قصتي، أفضيت بها إليك كاملة غير ناقصة، دون أن أخفي عنك شيئًا من خباياها، أو أكتم عنك سرًا من أسرارها!

***

ظلت اللادي هاملتون عشيقة لذلك القائد العظيم إلى أن مات

زوجها في سنة ١٨٠٠، فرزقت من "هوراس" نلسون بطفلة أطلقت عليها اسم "هوراسيا" وفى سنة ١٨٠٥ قتل الأميرال في واقعة "الطرف الأغر" الشهيرة، ففقدت "إيما هاملتون" بموته كل أمل وكل عزاء.

وهجرت لندن إلى قرية صغيرة في الأقاليم، وكانت قد أضاعت ثروتها، فتبعها الدائنون، وضيقوا عليها الخناق، وجعلوا حياتها أشبه بالجحيم.

لم تطق صبرًا على الذل والفقر بعد العز والغنى، فماتت معدمة لا تملك من حطام الدنيا شيئًا، وراحت ضحية المرابين الذين جردوها من كل شيء، عندما أصبحت وحيدة مهيضة الجناح، بعد أن كانوا يتمرغون على قدميها، وهي عزيزة الجانب واسعة الجاه!

ودفنت -بناء على رغبتها- بين زوجها اللورد وعشيقها الأميرال.

أما ابنتها هوراسيا، فقد عنيت شقيقات نلسون بتربيتها وتعليمها. وعندما بلغت سن الزواج، اقترنت بأحد نبلاء الإنجليز، الذي نسي أو تناسى أن الزوجة التي وقع عليها اختياره هى ثمرة غرام فاسد.

شهيد الوفاء

دافع الفرنسيون عن القرية دفاع الأبطال الأمجاد، وسقطوا جميعهم في ساحة القتال صرعى أو جرحى، واستولى الألمانيون على ما تبقى من منازل القرية وأسواقها، وقد دمرتها المدافع وأكلتها النيران.

وكان بين الجرحى شاب في الثانية والثلاثين من عمره، أصيب برصاصة في فخذه الأيمن، فسقط في ساحة الكنيسة، حيث أغمي عليه.ولما أفاق من غشوته، وجد نفسه في أحد المستشفيات، وراء صفوف المقاتلين، وبجانبه راهبة تواسيه، وطبيب يضمد جراحه.

نظر إليهما الشاب نظرة ملؤها الشكر والعرفان بالجميل، وحاول أن يتحرك، لكن ألمه كان شديدًا فأرسل أنة عميقة، واستلقى من جديد على فراشه.

اقتربت منه الراهبة وقالت بصوت حنون:

- أتتألم كثيرًا يا بني؟

فرفع الشاب الجريح بصره وأجاب بصوت ضعيف:

- كثيرًا يا أختي، كثيرًا! كنت أوثر الموت في ساحة القتال على البقاء حيًا هكذا جريحًا دامي الجسد والنفس.

فقاطعته الراهبة الممرضة:

- لا تيأس يا ولدي! فسوف تشفى من جرحك هذا، وتعود إلى القتال إذا شئت.
- إذا شئت؟ هذا ما أرغب فيه، فقد حرمت من لذة الانتقام لصديقي، ولم أبر بالعهد الذي قطعته على نفسي.
- وأي عهد قطعت على نفسك؟
- أن أنفذ وصية الضابط "دومارسيه".
- من مدينة مرسيليا؟
- أجل، أتعرفينه؟
- أعرفه جيدًا، فقد أصيب بجرح منذ ثلاثة أشهر، وساعدني الحظ فكنت الممرضة التي اعتنت به، وانتشلته من مخالب الموت.
- لقد أنقذ والده والدي، وتبناه ورباه في منزله، لكن هذه القصة لا تهمك.
- بل تهمني، قصها علي.

فسكت الشاب واغرورقت عيناه بالدموع، ثم قال:

- اصغي إلي يا أختي، وإذا ما قضيت نحبي في هذا المستشفى، ولم أعد إلى مرسيليا حيث تنتظر زوجة دومارسيه رفيق حياتها ووالد بنيها، فرجائي الوحيد إليك أن تحملي إليها خبر موته وموتي.
- تكلم يا بني!

- اعلمي أولًا أنني لست من أبناء هذه البلاد.

- كيف ذلك؟

- أنا مصري الأصل، فرنسي المولد والتربية، كان جدي من المماليك الذين استعان بهم القائد بونابرت في حروبه وفتوحاته، وكان يدعى "أحمد الفارسي"، جاء مع بونابرت إلى هذه الديار، عندما عاد إليها ذلك الفاتح العظيم، وظل في خدمته منذ ذلك الوقت إلى أن وافاه الأجل.

- وأبوك؟

- ترك جدي ولدًا وحيدًا يدعى مصطفى، فأخذه الضابط جول دومارسيه إلى بيته، حيث عاش اليتيم مع أبناء الضابط الفرنسي، كأنه واحد منهم.

- وجول دومارسيه.

- هو والد الضابط "أدريان دومارسيه" صديقي هذا.

- وهل اعتنق أبوك الدين المسيحي؟

- كلا، بل ظل يدين بالإسلام وقد تزوج بابنة عم منقذه جول دومارسيه، ورزق منها ولدًا واحدًا.

- هو أنت؟

- هو أنا، أجل.

- وهل مات والدك؟
- منذ عشرين سنة، وكنت حينئذاك في الخامسة من العمر.
- ومنذ ذلك الوقت؟
- منذ ذلك الوقت، عشت مع أدريان دومارسيه وإخوته، ثم انتقلت معه إلى منزله عندما اتخذ له زوجة ورزق أبناء، وكانوا يعدونني واحدًا منهم.
- ألم تتزوج؟
- كلا، وكنت عازمًا على البقاء أعزب طول حياتي.
- وبعد؟
- هبت العاصفة الهوجاء، وأطلقت الحرب من عقالها، واكتسح الجنود الألمانيون هذه البلاد من شمالها إلى قلبها، وانتشروا في المدن والقرى، يطلقون أيديهم في السلب والنهب والقتل!
- ما أفظع الحروب وأهوالها!
- أجل، الحرب فظيعة والقائمون بها مجرمون سفاكون!
- وما حملك على الاشتراك فيها، وأنت غريب عن هذه الديار؟
- لست غريبًا بالمعنى الصحيح، فإن الدم الذي يجري في عروقي مزيج من الدم الفرنسي والمصري.
- وهل تطوعت من تلقاء نفسك، أم دفعك الضابط دومارسيه إلى

ارتداء هذا الثوب العسكري؟

- تطوعت من تلقاء نفسي، فقد دعي صديقي الضابط إلى الصفوف، وطلبت إليه أن يدعني أصحبه وأقاتل معه جنبًا إلى جنب.

- وهل خضت غمار معارك كثيرة؟

- شاهدت أربعين معركة واشتركت فيها جميعها.

- ولم تصب بأذى؟

- كلا، لكن دومارسيه قتل منذ شهرين في موقعة دامية، في مقاطعة شمبانيا.

- وكنت بجانبه؟

- كنت بجانبه، وقد سقط بين ذراعي مضرجًا بدمه،فالتفت إلي وقال: "يوسف، إليك وصيتي الأخيرة، انتقم لي! حياتي تساوي حياة عشرين من الأعداء، فعدني أنك ستقتل منهم عشرين رجلًا، فتوفي بذلك دينك لي".

- وهل وعدته بذلك؟

- وعدته وقدمت وعدي بالقسم!

- وهل قمت بالوعد؟

- قتلت ثمانية ضباط من الألمانيين، وأصبت بعد ذلك بهذا الجرح الخطر، الذي سوف يقضي علي، فيحول موته دون تنفيذ وصية

الميت إلى النهاية، وهذا ما يؤلمني أكثر من هذا الجرح الدامي!

***

قال الجندي هذا وأغمي عليه من جديد ولم يفق بعد ذلك.

ومات "يوسف" في ذلك المستشفى حزينًا يائسًا؛ لأن القدر القاسي لم يساعده على القيام بعهده، والانتقام لصديقه، حصده ملاك الموت قبل الأوان.

بكت الراهبة الممرضة حزنًا عليه، وعزمت على تنفيذ وصيته الأخيرة، فحملت إلى أسرة دومارسيه خبر الوفاة، فبكت الزوجة زوجها، والأبناء أباهم، وأكبروا جميعهم عمل الشاب المسكين، الذي قذف بنفسه إلى الحرب، وقابل الموت بثغر باسم، وشجاعة عظيمة، اعترافًا منه بفضل صديقه الكبير عليه، وتنفيذًا لما أوصاه به الميت قبل استشهاده.

وبكت الزوجة والأبناء ذلك الأخ المخلص، يوسف الفارسي، ابن مصطفى الفارسي، وحفيد المملوك أحمد الفارسي المصري، الذي قضى تحت سماء فرنسا، في سبيل الواجب وشهيد الوفاء.

عبد السميع المغربي

في اليوم الثامن من شهر نوفمبر سنة ١٨٤٨، وصل الأمير عبد القادر بن محيي الدين الجزائري إلى مدينة أمبواز الفرنسية، ومعهأبناؤه وبعض الخواص من أنصاره ومريديه، وأقام مع تلك الحاشية الكبيرة في القصر الفخم الذي أعدته له الحكومة الفرنسية.

كان ذلك البطل العظيم والقائد المغوار قد حارب الفرنسيين، ونازعهم أرض آبائه وأجداده، وحاول أن يرد جيوشهم الجرارة عن وطنه الجزائر، فابتسم له الحظ حينًا، وعبس في وجهه أحيانًا، وانتهى الأمر بأن دارت الدائرة عليه، واستولى الفرنسيون على تلك البلاد العربية من ساحلها إلى أقصى صحاريها، وفى مساء اليوم الثامن والعشرين من شهر أغسطس سنة ١٨٤٧، سلم عبد القادر بن محيي الدين سيفه وجواده لقائد الفرنسيين، الذي قطع على نفسه عهدًا باسم حكومة بلاده، بأن يفتح الطريق حرًا أمام البطل الجزائري، ويدعه يسافر إلى البلاد التي يختارها من الأقطار الشرقية.

لكن حكومة الجمهورية الفرنسية الثانية لم تقم بالعهد الذي قطعه القائد للأمير، فأرسل عبد القادر أسيرًا إلى فرنسا، وظل في قصر أمبواز من سنة ١٨٤٨ إلى سنة ١٨٥٢، وهى السنة التي غادر فيها المدينة الفرنسية وسافر إلى الشرق، وأقام في دمشق بقية حياته الحافلة بعظائم الأعمال.

وكان بين الذين وافوا عبد القادر بن محيي الدين إلى منفاه في

أمبواز رجل من أتباعه وجنوده يدعى عبد السميع المغربي، أبى إلا أن يشاطر أميره الضراء بعد أن شاطره السراء، وأن يخلص له الخدمة إلى النهاية، بعد أن وضعت الحرب أوزارها، كما أخلصها له في مضمار الجهاد، وميدان القتال.

وكان الأمير يحب ذلك الجندي المخلص والخادم الأمين، ويحفظ له الجميل على صنعه، ولا ينسى له التضحية التي قام بها بهجره وطنه وأهله وخلانه، للحاق به إلى ديار النفي والعزلة، ومما قاله له مرة عبد السميع المغربي: "إنني يا مولاي قد شطرت قلبي إلى شطرين، شطر وهبته لله عز وجل، وشطر وهبته لك ما دمت حيًا".

لكن المغربي لم يشعر ذات يوم إلا وقد حل في قلبه المشطور إلى شطرين شخص لم يكن بالانتظار، ولم يحسب له الرجل من قبل حسابًا، فاضطره ذلك إلى إعادة التقسيم وإلى تجزئة قلبه بالرغم منه إلى ثلاثة أجزاء.

ذلك الشخص، بل ذلك الملك، جاءه في صورة فتاة جميلة فاتنة، تدعى "أليس فونتان" عرفها الفارس الجزائري، وهي تتردد على القصر، فأحبها وأحبته، وكاشفها بغرامه، فكانت عند حسن ظنه بها، وبادلته بمثل غرامه، وتعاهد الاثنان على الزواج، ورضيت الفتاة بأن تقيم في القصر أسيرة مع حبيبها، إلى أن يفرج عنه ويطلق سراحه، فتذهب معه إلى حيث يريد، وتتبعه إلى حيث يشاء.

أفضت الفتاة إلى أهلها برغبتها وعزمها، فثار ثائرهم، وقامت قيامتهم، وحرموا عليها منذ ذلك اليوم الخروج من البيت وحدها،

والذهاب إلى القصر الذي يقيم فيه الجزائريون وبينهم حبيبها عبد السميع، وأقسموا أنهم سينتقمون منها ومن الجزائري إذا غافلتهم وخالفت إرادتهم، قائلين لها إنهم يؤثرون رؤيتها جثة هامدة بين أيديهم على رؤيتها زوجة لذلك الغريب، الذي لا يمت إليهم بنسب، والذى ينتمي إلى أمة غير أمتهم، ويدين بدين غير دينهم.

ومرت الأيام والأسابيع، والفتاة العاشقة سجينة في بيتها، والشاب العاشق سجين في قصره، لا يستطيع أحدهما الخروج من سجنه والاتصال بمن يحب.

وكان عبد السميع المغربي يجهل ما حل بحبيبته، ولا يعلم السبب الذي من أجله انقطعت الفتاة فجأة عن المجيء إلى القصر كعادتها، فاضطربت أفكاره وقلق باله، وجعل يضرب أخماسًا بأسداس، وانتهى به التفكير إلى الاعتقاد بأن "أليس فونتان" قد ضحكت منه وهزأت به، وأنها أرادت أن تلعب بعواطفه وتلهو بشعوره، فمثلت أمامه تلك المهزلة الغرامية، وكانت في تمثيلها ماهرة بارعة!

فأراد أن يتحقق من الأمر، وجعل يسأل فتيات المدينة المترددات على القصر، ويستفسر عن حبيبته، فقيل له إن "أليس" لا تغادر بيت أبيها إلا نادرًا وبصحبه واحد من أخواتها، وإنها تبدو دائمًا عابسة كئيبة حزينة.

تضاعف اضطراب الشاب حينذاك وازداد قلقه، وخشي أن يكون في الأمر سر ما، وأن تكون الفتاة قد أصيبت بمكروه أو حلت بها مصيبة، وأصبحت حياة المسكين منذ تلك الساعة سلسلة عذاب وآلام نفسية

مبرحة.

وكان في سجنه مهيض الجناح، لا يستطيع شيئًا ولا يملك وسيلة تقرب بينه وبين الفتاة، وتمكنه من استجلاء الحقيقة ومعرفة الواقع، فزاده الشك ألمًا على ألم وعذابًا على عذاب.

***

نهض سكان القصر في صبيحة اليوم الخامس من شهر نوفمبر سنة ١٨٥١ على أصوات استغاثة آتية من الحدائق الواسعة، فهرعوا إلى مقر تلك الأصوات، وإذا بهم أمام فتاة في ثياب النوم، تزحف على الأرض زحفًا، بجانب السور الشرقي، والدم يسيل من صدرها وجنبها، تاركًا وراءها آثاره الحمراء.

حملوها مسرعين إلى داخل القصر، وأسعفوها بالعلاج، وضمدوا جراحها، وهي تردد بلا انقطاع اسم "عبد السميع".

فنادوا الرجل من حجرته، وهم لا يدركون لهذا الحادث معنى، وأقبل عبد السميع على الفتاة فعرفها، وضمها إلى صدره، وجعل يغدق عليها من الكلمات الحلوة العذبة ما أعاد إلى نفسها الطمأنينة وإلى ثغرها الابتسام، وأثار في نفوس الجزائريين الذين رأوا ذلك المشهد الشكوك والريب.

أدرك عبد السميع أنه قد تمادى أمامهم في إظهار عوطفه، وذهب على مرأى منهم إلى أبعد مما تبيحه له اللياقة ويجيزه له الأدب، فوضع رأس الفتاة على وسادة، ونهض من مكانه، وخاطب رفاقه في الأسر قائلًا:

- لهذه الفتاة قصة يجب أن تطلعوا عليها، وبين جنبيها سر رهيب ينبغي أن تفضي به إليكم بنفسها. ولكن لن يكون ذلك إلا في حضرة سيدنا وأميرنا عبد القادر بن محيي الدين، فدعوني أستأذن منه للمثول بين يديه مع هذه الفرنسية الحسناء.

قصت "أليس فونتان" على الأمير عبد القادر وصحبه قصتها، بصوت متهدج خافت، وعلى وجهها أمارات التعب والعناء، ثم سكتت لحظة واستطردت قائلة:

- أردت اليوم أيها الأمير أن أهرب من منزل والدي وألحق بالرجل الذي أحببته في هذا القصر، فخرجت من البيت خلسة، وانطلقت أعدو في الطريق مسرعة إلى هنا. لكن أخي الأكبر شعر بفراري، وانطلق من جهته في أثري فأدركني أمام الباب الحديدي، وأمسك بي، وأراد أن يرغمنى على العودة معه إلى البيت فرفضت، وهددني فلم أخف ولم أخضع، فما كان منه حينذاك إلا أن استل خنجره وأغمده في صدري ثم في جنبي، فسقطت على الأرض، وفر الأخ المجرم الأثيم، وقد ظنني ميتة، فناديت واستغثت، ولبى رجالك ندائي وأغاثوني.

هذا ما قالته الفتاة "أليس فونتان" لعبد القادر الجزائري ومن كان يحيط به من الأسرى الجزائريين في ردهة الاستقبال في قصر أمبواز.

ومال رأسها فجأة على كتفها، وسقطت على الأرض لا حراك فيها، وقد استنفد ذلك المجهود العظيم قواها، ففاضت روحها شاكية إلى

الخالق ظلم لإنسان لأخيه!

طلب عبد القادر الجزائري من السلطة المختصة في المدينة أن يسمح له بدفن جثة الفتاة الفرنسية في مقابر المسلمين بجوار القصر، فسمح له بذلك، ورقدت الفتاة العاشقة هناك، في ظل الأشجار الباسقة والغصون الوارفة.

وفى اليوم الحادي عشر من شهر ديسمبر سنة ١٨٥٢، عندما أمر عبد القادر رجاله بشد الرحال لمغادرة أمبواز، بعد أن أخلت الحكومة الفرنسية سبيلهم، وأعادت إليهم حريتهم، امتثل الجميع للأمر ما عدا أسير واحد أبى أن يتمتع بتلك الحرية المحبوبة المنشودة.

ذلك الأسير هو عبد السميع المغربي البطل العاشق، الذي وجد منتحرًا في حجرته، وبجانبه ورقة صغيرة كتب عليها هذه الكلمات: "ادفنوني قبل رحيلكم في الضريح الذي يضم رفات أليس فونتان، فقد أبت الأقدار أن أتخذها خليلة في الحياة، فدعوني أتزوجها في الممات!".

والزائر الذي يمر اليوم بمدينة أمبواز، ويطوف في أنحائها، ويصل إلى مقابر المسلمين فيها، يرى بين الأضرحة الكثيرة المبعثرة هنا وهناك، قبرًا صغيرًا، عليه حجر أسمر اللون، يعلوه شاهد من المرمر، هو قبر العاشقين اللذين لم ينعما بالوصال: أليس فونتان الفرنسية، وعبد السميع المغربي الجزائري.

البطل الجبان

عثر أحد مؤرخي المكسيك على تفاصيل هذا الحادث، فدونها في كتاب وضعه عن تلك البلاد، قال:

اشتعلت نيران الحرب الأهلية في المكسيك، ونشب القتال بين جنود الحكومة وبين الثوار، فدارت الدائرة على حزب الإصلاح وأخمدت الثورة، ولجأت الحكومة إلى الإرهاب، للقضاء على من بقي من الزعماء المهيجين، ولدرء كل خطر مقبل.

علمت والدة "جوان دا كوستا" أن ولدها الأصغر "مانويل" وقع أسيرًا في أيدي الجنود، وأنهم سيعدمونه رميًا بالرصاص في اليوم التالي عند شروق الشمس، فجلست في مقعدها حزينة كئيبة، وظلت غارقة في بحار الأحلام، تذرف الدموع السخينة مدة ساعة كاملة.

منذ ثلاث سنوات مات ولدها الأكبر "جوان" موت الأبطال، بعد أن خدم المبادئ الدستورية بنزاعة وإخلاص وإقدام. كان جوان مثال الشجاعة والبسالة، لكن الأقدار خانته فقبض عليه ورمي بالرصاص، فخر صريعًا في سبيل المصلحة العامة، ولفافة التبغ بين شفتيه، ضاحكًا هازئًا بخصومه، مبتسمًا أمام الموت.

وقد انتقم لنفسه، وتمكن من قتل أربعة جنود قبل أن يقبض عليه. ذهبت أمه إلى ساحة الإعدام بصحبة بعض الأصدقاء، وشاهدت موت

ولدها البطل، وظلت صورته مرسومة على صفحة قلبها، فكانت تستمد العزاء من ذكرى حبيبها.

رأته هادئًا جميلًا، واقفًا موثق اليدين واللفافة بين شفتيه، أمام الجدار الأبيض، اقترب منه الكاهن فحدثه بسكينة وهدوء، وطلب منه الغفران عن سيئاته. ثم بحث عن أمه بين الحاضرين، وحدق فيها النظر حتى الثانية التي أرغم فيها على تحويل عينيه عن أمه، والنظر إلى فوهات البنادق المصوبة إليه.

دخن لفافته حتى النهاية، ثم ألقاها من فمه، والتفت إلى الذين كانوا حوله وقال:

- إن من يموت منا يذهب ضحية الجور وشهيد الواجب، إني أموت في سبيل المبدأ. وكل قطرة من دمائنا ليست إلا زهرة ورد يزين بها علم الحرية الخافق، ستطلقون بنادقكم في سبيل الحرية لا عليها.فشكرًا لكم!

أطلقت البنادق، فظل جوان واقفًا حينًا، ثم سقط على الأرض رويدًا رويدًا.

هكذا مات الابن الأكبر، تاركًا أثرًا خالدًا في النفوس، وذكرى مجيدة بين أبناء عشيرته.

ولما علمت الأم المسكينة أن ابنها الأصغر مانويل سيعدم أيضًا رميًا بالرصاص كما أعدم أخوه جوان استولى عليها الذهول. إنها تحب

مانويل، لكنها كانت تحب جوان أكثر منه؛ ذلك لأن مانويل ليس شجاعًا كأخيه، بل هو جبان، جبان جدًا. ولم يشف من جبنه رغم الدروس الوطنية التي كان يلقيها عليه أخوه وأبناء قومه. تطوع مانويل في جيش الثورة؛ لا حبًا في الإصلاح، ولا انتصارًا لمبدأ شريف، ولا عن شجاعة وإقدام، بل عن خوف ووجل. خاف أن يقول عنه الآخرون إنه جبان أو خائن، فتطوع مثلهم.

كانت ثياب الجندى تثقل منكبيه، وكان دوي البارود يبعث الرعب إلى نفسه، وصليل السيوف يسبب له دوارًا، وكان عندما يطلق بندقيته يغمض عينيه ويرتجف. لكنه كان طلق اللسان حلو الحديث، فكان يؤثر على رفاقه بكلامه ويخدعهم بلهجته، فينظرون إليه كما ينظرون إلى بطل همام وشجاع مقدام.

قبضوا عليه وحكموا عليه بالإعدام، لم يفعلوا ذلك لأنه مانويل فقط، ولأنه ثائر في وجه الحكومة مع من ثار عليها؛ بل لأنه أيضًا شقيق جوان، الذي كان المتربعون في دست الأحكام يخشون ذكره، ويتعقبون آثار أهله وخلانه للإيقاع بهم جميعًا.

كان الجنود ينظرون إلى أسرة داكوستا كأنها وكرزنابير، وبما أن أحد الزنابير لذع الحكومة مرة واحدة، فيجب إذن إبادة الأسرة بكاملها وعدم الوكر وحرقه!

عقد مجلس حربي لمحاكمة مانويل، فقصد الشاب إلى رئيس المجلس، وألقى بنفسه على قدميه، وبكى بكاء مرًا، وطلب العفو متعهدًا

بخيانة مبادئه والانضمام إلى صفوف الحكومة ومناهضة الثورة.

أجل، هذا ما فعله الشاب الجبان، رضي أن يخون إخوانه ويقتلهم ويتجسس عليهم.لكن القضاة لم يرقوا لحاله وظنوا أنه يفعل ذلك غشًا وخداعًا، أممكن أن يكون أحد أفراد أسرة داكوستا خائنًا جبانًا إلى هذا الحد؟ أليس مانويل شقيق جوان وابن فردينانو؟ لا بد من إعدامه في الحال والتخلص منه!

وبعد المداولة قال رئيس المجلس:

- أؤكد لكم أنه سيكون ثابت الجنان رابط الجأش كأخيه، عندما يصدر عليه حكمنا بالإعدام.

جرت المحاكمة وصدر الحكم:الإعدام رميًا بالرصاص.

أمر غريب، غريب جدًا! أظهر مانويل شجاعة نادرة عندما تلي عليه الحكم، لكنها شجاعة مصطنعة، شجاعة مصدرها الذهول والانحطاط في القوى العقلية.

فكر الشاب في الموت، فاستولى عليه نوع من الخبل، ثم عاد إلى رشده شيئًا فشيئًا، فأخذ يبكي ويلطم وينوح.

رآه السجان على هذه الحال، فظن أن الباعث على ذلك إنما هو الغيظ لا الجبن، بكى مانويل وانتحب، ثم خارت قواه فاستسلم إلى اليأس والقنوط.

حينئذ جاءت أمه لمقابلته.رفض الحارس في بادئ الأمر السماح لها

بالدخول، لكنها وضعت في يده قطعة من النقود ففتح لها باب السجن.

جلست الأم بجانب ولدها، وأخذت يديه بيديها، فألقى مانويل رأسه على صدرها وبكى، لكنها ابتسمت وقالت بصوت هادئ:

- مانويل كل شئ سائر على ما يرام، قابلت الضابط منذ حين، فرفع الشاب رأسه ونظر إلى أمه وفى عينيه بارقة أمل:

- العفو؟

خرجت هذه الكلمة من أعماق صدره، فحدقت أمه النظر فيه، وأدركت أنه خائف يرتجف، فعضت على شفتيها حتى أدمتهما:

- خائف هو، رحمة الله عليك يا جوان!

شعرت بأنها تكره هذا الابن الجبان، وأنها لا تحب إلا ذلك البطل الشجاع الذي قضى شهيد واجبه.

سكت الاثنان، ثم قالت الأم:

- أكد لي الضابط أنه يعفو عنك إذا رضيت أن تخدم الحكومة وتخون مبادئك الأولى.

بدا على وجه مانويل سرور عظيم، ففهمت الأم أنها أدركت الحقيقة.

- نعم يا أماه، عرضت عليه ذلك أنا أيضًا، لكنه لم يصدقني.

- أخطأت يا بني، لقد تم الاتفاق بيني وبين الضابط على أن تطلق

حريتك وتدخل في خدمة الحكومة، لكنه يطلب منا أن نبقي الأمر مكتومًا إلى حين؛ لأنه لو افتضح السر لساءت العاقبة.

- نعم.

- سيجري كل شيء كالمعتاد، وتقف أمام الجنود في ساحة الإعدام، لكن البنادق ستحشى بارودًا فقط. وعندما يطلق الجنود بنادقهم، تسقط على الأرض كأنك أصبت بالرصاص، وصعقت صعقًا، ثم يحملونك إلى المنزل لتدفن، فيرسل التابوت فارغًا، وتبقى أنت في البيت.

ثم ابتسمت وقبلته وتابعت حديثها قائلة:

- فتصبح حرًا طليقًا، وتدخل بعد ذلك في خدمة الحكومة إلى مدة وجيزة لتعود إلى صفوف الثائرين في أول فرصة.

- طبعًا يا أماه، هذا ما كنت أفكر فيه، لكن ما الفائدة من التظاهر بإعدامي؟ يصعب علي أن أقف أمام الجنود وأن تطلق البنادق في وجهي، حتى ولو كانت خالية من الرصاص القاتل!

فانتفضت الأم وقالت:

- يصعب عليك؟ أجبان أنت إلى هذا الحد؟ ألا تقوى على الوقوف أمام الجنود والنظر إلى فوهات البنادق الفارغة؟ أنا لا أطلب منك أن تكون بطلًا كأخيك، لا أرغب إليك إلا في الحياة يا بني، في الحرية تستردها. يمكنك أن تهزأ بالجنود، وأن تقهقه عندما تطلق

عليك البنادق الفارغة. أفاهم أنت؟ الفارغة.

وهنا خانها الجلد، فتساقطت الدموع من عينيها، وطوقت عنق ولدها بذراعيها.

لم يدرك مانويل معنى هذا الانقلاب.

- لا تخشي شيئًا يا أماه، سأكون شجاعًا.

فقبلته مرة أخرى، وابتسمت وانصرفت.

***

ترك موت مانويل داكوستا في نفوس أبناء بلاده أثرًا عميقًا، وذكرهم بموت جوان البطل الأكبر والشهيد المجيد.

وقف مانويل كما وقف جوان أمام الجدار الأبيض ولفافة التبغ بين شفتيه، وبحث مانويل كما بحث جوان عن أمه بين الجمع المحتشد، وابتسم لها ابتسامة ملؤها الشجاعة والحب.

رآه الضابط على هذه الحال فهمس في أذن سامعيه:

- أما قلت لكم أنه سيكون شجاعًا كأخيه، وأن كل ما أظهره من الجبن والخبل ليس إلا لعبة لعبها علينا لينجو بنفسه؟

ألقى مانيول لفافته كما ألقاها جوان، والتفت إلى الجنود وصاح بهم:

- أطلقوا النار!

وقهقه طويلًا.

فأطلقت البنادق، وكاد الرصاص يقطع جسمه إلى شطرين، سقط مانويل على الأرض جثة هامدة، فتقدم منه الجنود وحملوه ووضعوه في التابوت المعد للمعدومين، ولفت نظر الجميع ما طبع على وجهه من دلائل الدهشة والاستغراب والذهول!

كان وجهه مخيفًا.. لأنه لم يكن ينتظر الموت، كذبت عليه أمه ليكون شجاعًا، وليظهر أمام الجنود ما أظهره أخوه من ثبات الجأش.هذه كانت تعزية الأم الوحيدة: مات ولدها موت البطال، ولو بالرغم منه!

ولن يذكر أبناء المكسيك بعد اليوم اسم جوان داكوستا إلا مقرونًا باسم أخيه مانويل، وستظل الأم المسكينة "أم البطلين".

السلطانة صافناز

دخلت "والدة السلطان" على ابنها "عبد العزيز" الجالس على عرش آل عثمان، فأسرع إليها، وتناول يدها باحترام وإجلال، وقادها إلى مقعد وثير، فأجلسها عليه وقال:

- رجوتك بالمجيء إلي يا والدتي العزيزة؛ لكي أفضي إليك برغبة أريد تحقيقها بواسطتك.

فوضعت الأم قبلة على جبين ولدها وقالت:

- إنك سلطان البرين، والسيد المطلق التصرف يا بني، فأية أمنية تلك التي تحتاج إلى مساعدة أمك لتحقيقها؟

- نعم، أعلم أن في استطاعتي الحصول على ما أريد دون أن يعترضني أحد، لكنني أخضع للتقاليد، وإليك الآن ما أرغب.

- تكلم يا بني.

- في العام الماضي، أرسل إلي محمود بن عياد باشا التونسي ثلاث نساء من جواريه نلن حظوة عظيمة في عيني، وأردت أن يعاملن في القصر معاملة خاصة، فأمرت بوضعهن في حمايتك، وطلبت إليك أخذهن تحت رعايتك.

- نعم، والجواري الثلاث "يلدز وناجية وصافناز" يقمن منذ ذلك

الوقت معي، ويتناولن طعامهن على مائدتي.

- أماه، أرغب في اتخاذ إحداهن زوجة لي.

- ومن هي السعيدة الحظ التي وقع عليها اختيارك؟

- صافناز، إنها أبرع الثلاث جمالًا وأفتكهن لحظًا. خاطبيها وأطلعيها على رغبتي هذه.

- سيكون لك ما تريد يا بني.

***

أسرعت الأم إلى الجارية، وقصت عليها ما حدث بينها وبين السلطان عبد العزيز، وهنأتها على تلك الحظوة الخاصة، وذلك العطف السامي؛ ظنًا منها أن الفتاة سترقص طربًا، وتقابل الخبر بفرح وحبور، لكن "صافنار" ألقت بنفسها على قدمي والدة السلطان، وأجهشت بالبكاء، وجعلت تندب سوء طالعها!

- لم أعرف والدي يا مولاتي؛ لأن النخاسين اختطفوني طفلة من البلدة التي ولدت فيها، بل إنني لا أعلم إذا كنت تركية، أم شركسية، أم عربية. وفى هذه السنة التي قضيتها في كفنك، في هذا القصر، ألفيت فيك حنانًا أنساني ما عانيته في حياتي من مذلة وبؤس وشقاء. نعم إن عطف مولاي وولي نعمتي ووقوع نظره علي، واختياري دون نساء الحرم زوجة له، كل ذلك يقع في نفسي وقعًا شديدًا، ويؤثر في تأثيرًا عميقًا. لكنني لا أريد يا مولاتي. كلا، لا أريد

أن أصير سلطانة، بل أوثر البقاء وضيعة خاملة!

عبثًا حاولت "والدة السلطان" أن تقنع الفتاة بالعدول عن عزمها فاضطرت في النهاية إلى مجاراتها في رغبتها، وإنقاذها مما كانت تعتقده مصيبة كبيرة وبلاء عظيمًا.

فقالت للفتاة:

- لابد أن يكون في صدرك سر دفين تضمينه بين الضلوع يا ابنتي. فهل لك أن تطلعيني عليه، وأن تكاشفيني بحقيقة أمرك؟ إنني امرأة مثلك. امرأة ذاقت في صباها ما تذوقينه الآن من مرارة وحسرة. فقد جيء بى إلى هذا القصر بالرغم مني. لكنني خضعت لأحكام القدر، وأذعنت لما كتب لي في صفحات الغيب. فنسيت الماضي، ورضيت بالحاضر، وانتظرت صابرة ما يجيئني به المستقبل. تكلمي يا ابنتي وقولي لي: أي سر ذلك الذي يحملك على الرفض؟

فتنهدت صافناز، وأجابت:

- لا تسأليني، بل سلي الأمير عبد الحميد!

فانتفضت "والدة السلطان" وقالت:

- آه، لقد فهمت الآن!

***

كان الأمير عبد الحميد شابًا جميلًا، يطوف أرجاء القصر، ويقضي

لياليه في الحدائق الغناء، لا تقلق باله شؤون السلطنة، ولا تعكر صفو راحته متاعب العرش.

كان في الثلاثين من عمره، عندما وقع نظره للمرة الأولى على الجارية صافناز، فعلق بها قلبه، وعلق به قلبها. وتوثقت بين الاثنين عرى حب شديد خالص، وجعل كل منهما يمني النفس بزواج قريب يحمل معه السعادة والهناء.

لكن صافناز كانت من نساء السلطان وجواريه، وليس لعبد الحميد أن يتطلع إلى حرم عمه، ويتخطى حدودًا لا تسمح له التقاليد بتخطيها.

وعندما جاءته والدة السلطان، سائلة مستفهمة، أفضى إليها بسره، وأطلعها على ما يكنه قلبه من حب وهيام لتلك الجارية الحسناء، وما يعلقه من أمل على تحقيق أمنيته باتخاذ صافناز زوجة له.

أدركت أم السلطان أنها أمام عاطفة قوية متبادلة بين العاشقين، وحملها حنوها على الميل إلى مساعدة عبد الحميد دون ابنها. فقالت له:

- إن عمك يا بني جالس على العرش، وهو صاحب سلطة واقتدار، له ما يريد ويملك ما يشاء. فانعم بالًا، سأسعى إلى التأثير عليه، فأجعله يعدل عن رغبته، وتبقى صافناز حرة طليقة، فتتخذها أنت زوجة لك.
- سأحفظ لك ما حييت هذا الجميل. لقد أحببت صافناز حبًا عظيمًا، تضمحل أمامه كل عاطفة، ولو قدر لي أن أفقد أمل الزواج بها،

وأصدم في هذا الحب العميق، لقضيت حياتي شقيًا تعسًا حزينًا، بل لقطعت حبل هذه الحياة التي لن تطيب لي بدون صافناز الجميلة.فوعدته خيرًا، وقطعت على نفسها عهدًا بأن تحقق ذلك الحلم وتعقد ذلك الزواج.

صدق السلطان عبد العزيز ما قصته عليه أمه من أمر صافناز الجارية، واعتقد أن الفتاة مريضة، وأن الأطباء أشاروا عليها بالراحة التامة، والابتعاد عن الأستانة، والالتجاء إلى المناطق الجبلية طلبًا للسكون والشفاء.

وذهبت الأم إلى أبعد من ذلك، وجعلت ابنها السلطان يعتقد أيضًا أن الزواج يقضي على حياة صافناز، وأن دخول رجل عليها سوف يكون بمثابة دخولها القبر!

لم يخطر ببال عبد العزيز أن "والدة السلطان" تخدعه، فعدل عن عزمه، ورضي باتخاذ يلدز زوجة له، بدلًا من أختها صافناز.

وهكذا كان.

وبعد أيام، جاءت والدة السلطان إلى عبد العزيز، وهى مكفهرة الوجه مقطبة الجبين، وقالت:

- إنني أحمل إليك اليوم يا بني خبرًا ليس فيه ما يسر ويفرح.

لقد ماتت صافناز، ودفنت في حديقة المنزل الذي كانت تسكنه، في جبال الأناضول!

أما الحقيقة فكانت غير ما ذكرت والدة السلطان، وفى الوقت الذي كان عبد العزيز يعتقد فيه أن الجارية أصبحت في عداد الأموات، كانت صافناز تذوق بين ذراعي حبيبها عبد الحميد لذة الحب ونشوة الغرام.

مهدت المرأة للعاشقين سبيل الوصال، وصارت تنظر بعين العطف والرعاية إلى ذلك الحب المترعرع، فأحاطته بسياج من الكتمان، وظل أمر الحبيبين مجهولًا من الجميع، دون أن يعلم أحد في الأستانة كلها أن الجارية "الميتة" لا تزال على قيد الحياة، وأنها أصبحت زوجة للأمير عبد الحميد.

أربع سنوات قضاها الزوجان في أحضان السعادة والهناء، فرزقا ثلاثة أبنائهم ثمرة الحب الأول، وسيظل عبد الحميد إلى آخر أيامه يذكر بالحسرة والحنان تلك الساعات الحلوة اللذيذة التي مرت على شبابه مرور الطيف.

***

١٨٧٦

رحل السلطان عبد العزيز إلى جوار ربه، وجلس على العرش ابن أخيه مراد، شقيق عبد الحميد الأكبر، باسم مراد الخامس.

ومنذ ذلك الوقت، جعل الأمير العاشق يتطلع إلى أريكة الملك، ويوجه كل عنايته إلى تسنم ذلك العرش، الذي لا يليق به رجل ضعيف

الإرادة خائر النفس كالسلطان مراد.

وفى ثلاثة شهور، أثبت عبد الحميد أنه جدير بالملك، وأن إنقاذ السلطنة من الخطر الداهم الذي يكتنفها لن يتم إلا على يده، فاكتسب رجال البلاط وأقطاب البلاد، وفي شهر أغسطس ١٨٧٦ كان الأمير عبد الحميد جالسًا على العرش، ونودي به سلطانًا باسم عبد الحميد الثاني.

وبدلت الأقدار أحوالًا بأحوال وأشخاصًا بأشخاص!

تقلد عبد الحميد "سيف عثمان" في حفلة رائعة، أقيمت في جامع أيوب بالأستانة، في السابع من شهر سبتمبر سنة ١٨٧٦.

ومنذ ذلك اليوم، عادت صافناز الميتة إلى الحياة جهارًا، وحملت لقب "سلطانة" عملًا بالقوانين واتباعًا للتقاليد.

وبدلت الأقدار أيضًا قلوبًا بقلوب وشعورًا بشعور!

كان عبد الحميد "الأمير" يحب زوجته ويخلص لها في حبه، لكن عبد الحميد "السلطان" لم يكن ليجد من وقته متسعًا، بين المكائد والدسائس ومتاعب الملك، للالتفات إلى تلك المرأة أفرغ فيها عواطف شبابه.

ثم إن نيران الحروب والثورات، وقد اندلعت ألسنتها في أطراف السلطنة، كانت تسترعي أنظار الرجل وتتطلب اهتمامه، فأخمدت في صدره من جراء ذلك نيران الحب وسعير الغرام.

وظل عبد الحميد الثاني يحيط حبيبته الأولى "السلطانة صافناز" بالعطف والعناية، لكنه كان يفعل ذلك مدفوعًا بعاطفة الاحترام لزوجته، لا بعامل الحب والهيام.

كان في الرابعة والثلاثين من عمره عندما قبض بيده على صولجان الملك. ومنذ ذلك الوقت عزم عبد الحميد على خنق ما يتلاطم في صدره من شعور، ويهيج فيه من عواطف. أراد أن يكون سلطانًا قبل كل شيء، والاحتفاظ بالسلطنة يقضي عليه بأن يطرح جانبًا كل عاطفة من شأنها أن تنسيه واجبه نحو العرش، والحب عاطفة من هذا النوع!

لقد بلغ غرامه بصافناز مبلغًا عظيمًا، وهام بها هيامًا أفقده الصواب أحيانًا، وظل لها مخلصًا وفيًا في السنوات الأربع التي قضاها معها، بعيدًا عن أعين الناس ونواظر الرقباء.

لكن غرامه بالعرش، وهيامه بالسلطنة، قضيا على تلك الحياة الهنيئة، وبددا ذلك الحلم الجميل، وصار الواجب يحتم على عبد الحميد أن يكون سلطانًا قبل أن يكون رجلًا.

دخلت عليه صافناز ذات يوم في خلوته، وانطرحت على قدميه، وجعلت تذكره بذلك الغرام الذي كان الشابان يستمدان منه الحياة، قالت له:

- أنسيت يا عبد الحميد أنني رفضت طلب عمك، وآثرت الزواج بك على الزواج به؟ لقد فعلت ذلك لأنني كنت أحبك، ولأن الحب في نظري يفوق الملك بهجة وبهاء.

فأخذ السلطان رأس الحبيبة بين يديه، وضمه إلى صدره، وقال بصوت متهدج:

- أعلم ذلك يا حبيبتي، وكنت أنظر إلى الحب نظرك إليه. لكن الأقدار شاءت أن أنهج في حياتي منهجًا آخر. لقد أحببتك، ولا أزل أحبك، وسوف تظلين في هذا القصر وبين نسائه المختارة المدللة، ولكن واجبًا أسمى من واجب الحب يدعوني إليه. بالأمس كنت لك وحدك، أما اليوم فإنني للعرش أولًا ولك ثانيًا. لو استسلمت بعد الآن للحب استسلامي له من قبل، لفقدت العرش وأضعت السلطنة، ولن يقال إن عبد الحميد فقد عرشه وأضاع سلطنته من أجل النساء. سأعطيك من وقتي ما يتيسر، أما المال فلك منه ما تريدين، وقصور الأستانة أمامك، أنت فيها جميعها الآمرة الناهية!

فرفعت السلطانة صافناز رأسها، ونظرت إلى الحبيب بعينين ترقرقت فيهما الدموع، وقالت:

- إن قصور الأستانة جميعها، وخزائن أموال السلطنة جميعها، لا تساوي في نظر المرأة المتعطشة إلى الحب ساعة واحدة تقضيها مع الرجل الذي تحب، وداعًا يا عبد الحميد، لقد دفنت صافناز حية في عهد عبد العزيز، وستدفن أيضًا حية في عهدك!

***

طلبت السلطانة من زوجها أن يمن عليها بالطلاق كما من عليها من

قبل بالزواج، فأجابها إلى طلبها، وأهداها قصرًا على شاطئ البحر الأسود، حيث أقامت مدة من الزمن مع رجل آخر، اتخذته زوجًا لها، اعتقادًا منها أن هذا الزواج الثاني سينسيها الزواج الأول.

لكن القدر ظل عابسًا في وجهها، فأدركت أن السعادة قد ولت مع الحب، وأن الهناء لن يعود إليها. وأمعن ذلك القدر القاسي في تعذيبها، فمات زوجها الثاني، والتهمت النيران قصرها!

بلغ عبد الحميد الخبر، وكان في ذلك الوقت في أوج مجده، فأرسل يعرض على المرأة التي أحبها أن ترجع إلى القصر، وتقيم بين نساء الحرم معززة مكرمة، لكنها رفضت.

فأنعم عليها بقصر آخر في "جامليجا" وأمر لها بخمسين دينار ذهبًا مرتبًا شهريًا.

وهناك في عزلة ووحدة، قضت السلطانة صافناز بقية حياتها، تستمد القوة من ذكريات الماضي، وتنظر تارة قلقة، وتارة مذعورة، إلى الغيوم المتلبدة في فضاء السياسة، والأمواج المتلاطمة حول العرش، وتسمع من بعيد هزيم الرياح الهوجاء، المنذرة بعظائم الأمور.

لكن الموت وافاها في ذلك القصر الذي استحال لها قبرًا، قبل أن تشاهد هبوب العاصفة، وزعزعة العرش، وسقوط الرجل الذي أحبته، وموته في قصر منعزل سجينًا مثلها.

ياور الباشا

جلست الفتاة ليلى في ظل الشجرة الباسقة الوارفة، وأخذت رأسها بين يديها، وانهمرت الدموع من عينيها متدفقة كالسيل، وقد اكتنفت أغصان الصفصافة الحزينة الباكية، تلك العذراء الحزينة الباكية.

كيف لا تحزن ليلى، وكيف لا تبكي وقد عزم أهلها على زجها في هوة التعاسة والشقاء، وأرغموها على الاقتران برجل تمقته وتشمئز من مجرد النظر إليه؟ذلك الرجل هو إسماعيل بك، الضابط في الجيش.

كان في أيام الحرب السود ياورًا للطاغية أنور باشا، وكان معروفًا بشراسته وخلقه الوحشي، لا تلذ له الحياة إلا إذا تكدست حواليه الجثث أشلاء، وانبعثت منها رائحة العفونة والدماء!

كان الرجل سفاكًا أثيمًا، لا يمر أسبوع واحد دون أن يجنح فيه إلى جريمة يرتكبها أو سفالة يقترفها، لكن يد العدالة كانت أقصر من أن تصل إليه؛ لأن حماية سيده كانت درعًا متينًا ترد عنه الأذى، وترسًا منيعًا يدفع عنه عقاب القضاء.

أما هي فحسناء فاتنة، ذات جبين وضاء ووجه وضاح، تلمع فيه:

عيون عن السحر المـــبين تبين   لها عند تحريك الجفون سكون

إذا أبصرت قلبًا خليًا من الهوى   تقول له كن عـــــاشقًا فيكون!

ووالدها فلاح مزارع في قرية "تشيان" من أعمال الأناضول، يدعى أحمد كاهيا.

أحبت وهي في الرابعة عشرة من عمرها فتى بهي الطلعة، قوي العضلات، دمث الأخلاق، وتعاهدت معه على الزواج.

لكن أباها حال دون رغبتها، وألقى بها بين ذراعي ذلك الياور الغني إسماعيل بك؛ طمعًا في الجاه والمال.واحتمل الوحش فريسته ورحل إلى بعيد.

***

لم تطق ليلى البقاء مع ذلك الرجل، وهل يقوى الحمل الوديع على معاشرة الذئب الدموي؟ كانت حياتهما الزوجية سلسلة فواجع.

زوج ينهال على زوجته سبًا وضربًا، وزوجة مسكينة مهيضة الجناح، تتحمل الآلام والبلايا بصبر وجلد، منتظرة من ربها الفرج، ومن العناية الإلهية إنقاذها من ذلك الجحيم.

كانت تجلس في حجرتها المظلمة، حيث حبسها زوجها الغيور، هناك على ضفاف البوسفور، وتنظر من خلال زجاج النافذة إلى الزوارق تمخر عباب المياه الزرقاء، إلى الأفق البعيد، إلى الشمس المتلألئة، فتبكي حظها العاثر، وتفكر في قريتها الصغيرة، في أهلها وأترابها وخلانها، في الحبيب الذي وقفت له قلبها، ولسان حالها يردد قول القائل:

يا غادي البرق جد بالحي منزلة   جدنا عليها دماء من مآقينا
شطت بنا الدار فالذكرى تؤرقنا   ولامع البرق وهنًا بات يشجينا
كم ذا نؤمل بالبشرى وتخلفنا   ونسأل الطيف إسعادًا فيشقينا!

***

لكل ضعيف في هذا العالم نصير، ولكل قلب خافق قلب خافق يحن إليه حنين الأنامل إلى أضلع الأعواد.

كانت تقيم في منزل مجاور لمنزل الياور إسماعيل بك، امرأة عجوز أخنى عليها الدهر، وعضها الشقاء بأنيابه، فرقت لحال جارتها الشابة المعذبة، ومهدت لها سبيل الهرب، ففرت ليلى تحت ستار الظلام، وابتعدت عن مسكن الزوج القاسي.

عادت إلى قريتها حيث حاول أبوها إرجاعها إلى زوجها، لكن أفراد العائلة أوقفوه عند حده، وأرغموه على الاحتفاظ بابنته التعسة.

فبقيت ليلى في القرية، تساعد أهلها في الحقول، وقد عاد إليها الأمل في أيام مقبلة أسعد من الأيام المدبرة، ولكن الزوج كان بالمرصاد.

أثار هرب فريسته غضبه وشراسته، وسولت له نفسه الأمارة بالسوء أن ينزل بها وبذويها انتقامًا رهيبًا، كان يظنه عقابًا عادلًا، كان ذلك في غرة سنة ١٩٢٧.

إن الانقلاب العظيم الذي أحدثه مصطفى كمال باشا في تركيا قد بدل حالًا بحال، وأخلاقًا بأخلاق.لكنه لم يؤثر في نفس الياور إسماعيل

بك، الذي ظل يعتقد أنه فوق كل عدالة وقضاء، بل إنه القابض على كل عدالة وقضاء.

لم يلجأ إلى المحاكم ولا إلى الشرع طالبًا إنصافه وإعادة زوجته إليه، بل عمد إلى الأساليب التي ألفها، والتى طالما ضج منها الناس في عهد مضى وانقضى.

***

غادر إسماعيل الأستانة ذات يوم، وسافر إلى قرية تشيان، حيث نزل في ضيافة رجل من أصدقائه، وبات يرقب الفرصة السانحة للإقدام على الفعلة الشنعاء التي رسم خطتها وعول على تنفيذها.

خرج يومًا إلى الحقل مترصدًا، وقد اعتقل بندقيته الحربية ذات الطلقات العشر، فرأى أحمد كاهيا وأفراد عائلته ذاهبين إلى عملهم اليومي، وقد اصطحبوا ليلى كعادتهم منذ عودتها إلى القرية.

عرفهم إسماعيل واحدًا واحدًا، هو ذا أحمد كاهيا، الوالد الشيخ، ووراءه ليلى الزوجة الهاربة، تتأبط ذراع أخيها شوكت، فحفيظة أخت ليلى، ففاطمة زوجة شوكت. وصلوا إلى حقلهم، وتفرقوا، وباشروا عملهم.

فانساب إسماعيل انسياب الأفعى إلى الشيخ أحمد، ولما صار على بعد عشر خطوات منه، وثبت مسددًا فوهة بندقيته إلى صدر حميه، وصاح في وجهه:

– إنني ألقي عليك سؤالًا واحدًا، وأطلب الرد عليه في الحال، أتعيد

إلى ابنتك أم لا؟

فانتفض الشيخ ثم تمالك نفسه، ونظر إلى الفوهة القاتلة باحتقار وقال:

– لا، لن أفعل، إنني..

ولكنه لم يتم كلامه، أطلق إسماعيل من بندقيته رصاصة اخترقت صدر المسكين، فخر صريعًا، وسمع الباقون دوي الرصاص فأسرعوا مهرولين إلى كبيرهم. لكن رصاص إسماعيل حصدهم كالسنابل، الواحد بعد الآخر، فسقطت ليلى تتخبط بدمها وتبعتها حفيظة، ووقفت فاطمة في وجه ذلك الوحش، وتوسلت إليه باكية:

– اقتلني واعف عن زوجي!

لكن إسماعيل كان أشد حقدًا على شوكت منه على سواه، فأطلق عليه وعلى زوجته ما تبقى في بندقيته من رصاص، حطم رأس فاطمة، ومزق صدر شوكت!

ووقف بعد ذلك ينظر إلى الجثث المبعثرة، وارتسمت على شفتيه الغليظتين ابتسامة رديئة!

ثم ألقى البندقية من يده، واقترب ببطء من جثة زوجته، ونظر إلى الثقب الذي أحدثته الرصاصة في صدغها، وإلى الدم المتدفق منه.

وكأنه أراد أن يشهد السماء على تفننه في الإثم والفظاعة والقسوة، بعد أن أشهد عليه الناس، فانكب على الجثة الهامدة، وألصق شفتيه

بالثقب الأسود، وجعل يمتص الدماء الحارة.

هنا وعلى تلك الحال، وجد رجال البوليس ذلك الحيوان البشري، الذي أخطأت الطبيعة في قذفه إلى هذا العالم إنسانًا تحبل به امرأة وترضعه من لبن ثدييها!

وعلى عود المشنقة، كفر إسماعيل بك ياور أنور باشا عما اقترفه نحو الإنسانية من جرائم وآثام.

الزوجان العدوان

قال محدثي:

- وبعد أن قضينا ساعة كاملة في سفح الأهرام، نتحدث في شؤون شتى، وعدني صديقي الروسي أن يقص علي اليوم قصته، فطلبت إليه أن يسمح لك بالذهاب معي إلى منزله، لكي تدون ما يقوله وتنشره بين الناس إذا شئت، فهيا بنا. لا تدع الفرصة السانحة تفلت منك.

ترددت في قبول الدعوة، لكن صديقي ألح علي بالذهاب معه فذهبت.

دخلنا ذلك المنزل، في شارع محمد علي بالقاهرة، حيث كان المهاجر الروسي يسكن مع زوجته وخادمة عجوز. فاستقبلنا الرجل على الباب ببشاشة ولطف، ودعانا إلى الجلوس في غرفة صغيرة، أعدت فيها المقاعد الشرقية حول منضدة مستديرة.

ثم قال صديقي:

- تعلم يامسيو "سرج" الغرض الذي جئنا من أجله الليلة. وقد سمحت لي أمس أن أصحب معي هذا الصديق الذي يتوق إلى معرفة حوادث الانقلاب الروسي الحديث، فقص علينا قصتك حسب وعدك.

فأطرق الرجل لحظة، ثم رفع رأسه قائلًا:

- سمعًا وطاعة، لقد وعدتك ووعد الحر دين.

قال ذلك بلغة عربية فصحى، فدهشت وسألته:

- أتحسن لغتنا إلى هذا الحد يا سيدي؟

فنظر إلي طويلًا، وارتسمت على شفتيه ابتسامة تنم عن شيء من الحزن والأسى:

- نعم، أحسنها لأنني درستها وتعمقت في درسها، وسوف تعلم الداعي إلى ذلك في سياق الحديث.

وكانت الخادمة العجوز قد أحضرت القهوة، فشربناها وقلت لمضيفنا:

- إن اليسير الذي سمعته منك يا سيدي يشوقني إلى سماع الكثير، فتكلم إننا آذان مصغية.

فقص علينا الرجل ما يأتي، أنقله إلى القارئ بحروفه، قال "سرج تومازوف":

ولدت في جبال القفقاس، من أب مسلم وأم إسرائيلية، وكان اسمي "أحمد برهان". وكنت ضعيف البنية، فأرسلني والدي إلى سورية حيث كانت تقيم إحدى شقيقاته، فتلقيت العلوم في الجامعة الأميركية، وعدت إلى القفقاس سنة ١٩٠٥ وأنا في العشرين من العمر، وهناك تزوجت فتاة من بنات قريتي، وسافرت معها إلى العاصمة الروسية، حيث دخلت في

سلك الحرس الإمبراطوري.

هكذا نشأت، وهكذا تلقيت العلوم، لكنني وجدت طريق التقدم ضيقًا في الجيش الروسي، وكان الضباط ينظرون إلي نظرهم إلى الغريب؛ لأن القوم متعصبون، ولأن مذهبي الديني كان يثير في نفوسهم شيئًا من الكره والريبة، ففكرت طويلًا في حالتي وانتهى بي الأمر أن اعتنقت الدين المسيحي، أى إننى تبعت زوجتي في عقيدتها.

ولما هبت عاصفة الحرب العظمى سنة ١٩١٤ خضت غمارها، وكنت في رتبة ملازم، ولا أمدح نفسي إذا قلت لكما إنني أبليت في ميادين القتال بلاء حسنًا، فقد قمت بواجبي كجندي من جنود الوطن الروسي، وكضابط في حرس القيصر.

ثم حدث ذلك الانقلاب الهائل في روسيا، وأسقط القيصر عن عرشه، وتشتت أعوانه ومريدوه ورجال حاشيته في طول البلاد وعرضها، وعقب ذلك الانقلاب انقلاب آخر أشد هولًا منه، أعني به قيام الحكم الشيوعي على أنقاض الحكم القيصري، ومطاردة خصوم البلشفيين، وإغراق روسيا في بحر من الدماء.

بقيت مواليًا لأسرة رومانوف، والتحقت بأحد أفرادها الذي فر هاربًا إلى أصقاع سيبيريا، حيث جعلنا نلم شعثنا ونضم صفوفنا لمهاجمة المغتصبين واسترداد الحكم.

أما زوجتي فقد تركتني في بتروغراد، على إثر خلاف قام بينس وبينها؛ لأنها كانت قد اعتنقت مذهب لينين السياسي والاجتماعي، وقد

تطوعت في الجيش الأحمر، وحاربت في صفوفه كأحد جنوده، وأظهرت من الشجاعة والإقدام ما أطلق ألسنة رؤسائها بالمديح والثناء، فأرسلوها إلى حدود سيبيريا، وعينوها رئيسة لإحدى لجان السوفييت، وعهدوا إليها بمعاقبة خصوم البلشفيين وتعذيبهم، وكان ذلك في سنة ١٩١٨.

قامت حركة معادية للينين وأعوانه، وترأس تلك الحركة الأميرال كولتشاك، الذي تطوعت في خدمته، فاستولينا على سيبيريا وأوشكنا أن نقضي على أعدائنا هناك، وأن نغزو روسيا وندخلها فاتحين.

لكن الفظائع التي ارتكبها جنودنا حالت دون ذلك، فقد ثار علينا الفلاحون هناك، وتكاثر علينا عددهم، فغلبنا على أمرنا وألقينا السلاح من أيدينا.

كثيرًا ما تقرؤون في الجرائد أن الجنود قد ارتكبوا ولا يزالوا يرتكبون في روسيا فظائع تقشعر لهولها الأبدان، فكل ذلك صحيح لا مغالاة فيه. وقد وصلتني أخيرًا نسخة من "الغازيتة الحمراء"، وهى جريدة البلشفيين الرسمية، فاسمحا لى أن أتلو عليكما جزءًا من مقالة نشرتها تلك الجريدة بتاريخ ١٢ يونيو سنة ١٩٢٦، عن "مدينة الإرهاب"، أى مدينة "كوزنتسك" في سيبيريا.

***

نهض محدثنا وخرج من الغرفة، ثم عاد حاملًا نسخة من جريدة روسية وأخذ يقرأ علينا ما يلي:

عندما كان الأميرال كولتشاك باسطًا سلطته على سيبيريا، ارتكب جنوده نحو الفلاحين فظائع يعجز القلم عن وصفها، فأدى ذلك إلى نشوب ثورة محلية، فألف الفلاحون عصابات أطلقوا عليها اسم "العصابات الحمراء"، جعلت تشن الغارة على أعوان الأميرال، الذين اضطروا من جهتهم إلى تأليف عصابات مثلها أطلقوا عليها اسم "العصابات البيضاء"، لمقابلة الهجوم بالهجوم والفظائع بالفظائع.

"وكان "الحمر" إذا وقع بين أيديهم أحد من "البيض" أسيرًا، ينزعون عنه ملابسه ويسومونه العذاب أشكالًا وألوانًا. وكان "البيض" أيضًا إذا وقع بين أيديهم أحد من "الحمر"، يفعلون مثل ذلك بقسوة شيطانية، لم يذكر التاريخ مثلها في عصوره المظلمة. وكثيرًا ما كان أولئك الوحوش يعمدون إلى تجريد الأسير من ثيابه وإلقائه موثق اليدين في وسط الثلج وتركه يموت جوعًا وألمًا.

ولما استولى "روجوف" على مدينة "كوزنتسك" أمر جنوده بالقضاء على السطان فذبحوا منهم ألفين بين رجل وامرأة. فكانوا يدخلون المنزل ويقودون من فيه إلى عتبة الباب، حيث يجردونهم من ملابسهم ويذبحونهم ذبح الأغنام، ولم تسلم امرأة أو فتاة من تعدي الجند.

وكان الجنود أحيانًا يأتون بالأسير وينشرونه بمنشار شطرين، كما حدث لمليايف وبتروف.

وهنا ألقى سرج الجريدة من يده واستطرد قائلًا:

فى سنة ١٩١٩ قبض جنودنا على كوكبة من الفرسان البلشفيين

على إثر كمين نصبوه لها، فوقع الجميع أسرى بين أيدينا، وكانت زوجتي "كاثرين" معهم.

تصورا موقفي! كنت لاأزال أحارب في صفوف أنصار الحكم القيصري، وكانت زوجتي رئيسة لإحدى لجان السوفييت، فجيء بها إلى معسكرنا في جبال الأورال، وزجت مع رفاقها في سجن مظلم، في انتظار حكم الإعدام بعد يوم أو يومين.

رأيتها، وعرفتها لكنها لم ترني، فحاولت أن أدخل السجن ولكن المراقبة كانت شديدة، فذهبت مجهوداتي سدى، وبقيت ذلك اليوم كله أفكر في طريقة أنتشل بها زوجتي من مخالب الموت.

كانت عدوتي في المذهب السياسي، لكنها كانت ولا تزال زوجتي، فتلاشت الأحقاد والضغائن أمام ذلك الخطر الذي كان يتهددها، وتذكرت الأيام التي قضيتها معها قبل تلك الثورة المشؤومة، في سعادة وهناء.

ولما ضاقت بي الحيل، ذهبت إلى القيادة العامة، وبسطت الأمر لقائدي، طالبًا منه أن يعفو عن زوجتي اعترافًا بما قمت به أنا من خدمات جليلة للقضية الوطنية، وأن يمنحني حياتها جزاء إخلاصي وإقدامي.

فتردد القائد طويلًا، ثم التفت إلي وقال:

- إنك جندي شجاع وضابط من خيرة الضباط يا سرج،ولا يسعني إلا أن أجيبك إلى طلبك وأمنحك ما ترغب وتريد، ولكن لا بد من

الرحيل عن هذه المدينة.

فقلت له:

- كيف أرحل يا حضرة القائد والحرب الأهلية لم تضع أوزارها بعد؟

فأجابني وقد تقطب جبينه:

- لن نصل إلى نتيجة مرضية يا سرج، وسيكون نصيبنا الفشل. أجل سنضطر بعد أسابيع معدودة، إما إلى التسليم وإما إلى الهرب. فاذهب الآن وابتعد عن بلاد لا أمل في إنقاذها من الفوضى، إن العدو الذي نحاربه قوي شديد البطش، لن نستطيع قهره.

ثم نادى جنديًا وأرسله في طلب الضابط الموكل إليه بحراسة الأسرى، فأمره بإحضار كاترين، عاد الضابط بعد حينلاومعه زوجتي مكبلة بالحديد، لا أطيل في شرح ذلك المشهد المؤلم.

عانقتها، وعانقتني، وقبلتها وقبلتني، وكلمتها، ولكنها لم تجبني؛ ذلك لأنها فقدت حاسة النطق، فهمت منها بالإشارة أنها أصيبت برصاصة في عنقها، وأنها نجت من الموت بأعجوبة، فنهض القائد وصافحها قائلًا:

- لقد سمعت باسم يا سيدتي، وإني أغتنم هذه الفرصة لأعبر لك عن إعجابي بك، لقد عقد عن النطق لسانك، ولكن ألسنة من عرفوك ورأوك في ساحة القتال منطلقة بالثناء عليك. فاذهبي الآن مع زوجك، لقد قمت بواجبك نحو حزبك، كما قام هو بواجبه نحو

حزبه، فابتعدا الآن عن هذه البلاد، واهجرا السياسة والقتال.

فشكرت له حسن صنيعه، وخرجت مع زوجتي.

هذا ما قصه علينا "سرج تومازوف" الروسي القيصري نزيل مصر، في سنة ١٩٢٧.

وقد قال لنا إنه سافر من جبال الأورال إلى رومانيا فوصل إليها بعد أشهر، وكان قد جمع مبلغًا من المال لا يستهان به، ولما سألناه عن كيفية جمع ذلك المبلغ قال:

- لقد نهبته من الأعداء كما نهبواهم أموالي.

ثم قال بعد سكوت قصير:

- مكثت مدة في رومانيا، ثم سافرت إلى اليونان، ومنها جئت إلى مصر حيث أقيم الآن. ولكنني سأسافر قريبًا إلى القفقاس، وقد أستطيع الحصول على ما تركه لي والدي من عقار بعد وفاته. أما زوجتي كاترين فإنها تقيم معي هنا في هذا المنزل، لكنها لا ترغب في مقابلة أحد، وقد أصبحت الآن من ألد أعداء البلشفيين، ولا أشك في أنها ستحاربهم في ميدان القتال لو أتيح لها ذلك.

فشكرنا للرجل حسن ضيافته وانصرفنا على أن نعود إليه، وعدنا أكثر من مرة، ثم علمنا ذات يوم أنه غادر القاهرة عائدًا إلى بلاده، وانقطعت أخباره عنا منذ ذلك اليوم.

بين النهود والنحور

دخل أحمد أغا الشركسي على صديقه أفرام باشا، فوجده واقفًا أمام صورة الغازي مصطفى كمال باشا غارقًا في أفكاره، شاخص البصر إلى ذلك الرسم الذي حل في تركيا كلها محل رسوم السلاطين والغزاة وكبار القواد. حياه فلم يجب، فاقترب منه ووضع يده على كتفه وقال:

- ماذا عراك أيها الصديق؟ لم أعرفك قط من المعجبين بالغازي، فما بالك تنظر إليه نظرة المدنف المتصفح؟ هل أمسيت أنت أيضًا من عشاقه ومريديه؟

فالتفت أفرام باشا إلى صديقه والشرر يتطاير من عينيه، وأجاب بصوت باح مختنق:

- معاذ الله أن أكون من عشاقه ومريديه يا صديقي! إنني أكرهه وأضمر له الشر وأتمنى له العذاب والبؤس والتعاسة، لقد جنى هذا الرجل علينا جميعًا، لكن في السماء إلهًا عادلًا سوف يقتص منه وينزل به العقاب عاجلًا أو آجلًا!

وألقى الرجل بنفسه على مقعد، ماسكًا رأسه بيديه، وأخذ يبكي بكاء مرًا. فجلس أحمد أغا بجانبه، وجعل يهدئ ثورته، طالبًا إليه أن يطلعه على سره، ويفضي إليه بمكنونات صدره.

- ولما عاد إلى أفرام باشا رشده، وتمالك نفسه، نهض وأخذ صديقه

من ذراعه قائلًا:

- هيا بنا أيها العزيز إلى حديقة القصر، وهناك سأطلعك على ما تجهل من قصة حياتي، وأجعلك حكمًا بيني وبين طاغية الترك، الذي يعبده الناس ويسيرون وراءه كالنعاج الطائعة.

***

جلس الرجلان في ظل صفصافة، في الحديقة الغناء، المحيطة بذلك القصر الشاهق، وبعد سكوت طويل كان إفرام باشا في خلاله يتنهد ويتمتم كلمات مبهمة، خاطبه أحمد أغا ملحًا أن يقص عليه قصته ويتذرع بالصبر والجلد:

- إن أعمالك وحركاتك الصبيانية تدهشني وتقلقني، فقل لي ما بك؟
- سأتكلم، سأقول لك كل شيء، ولكن لا تقاطعني، بل دعني أستمر في حديثي إلى النهاية، ثم قل ما تشاء.
- افعل، إني لإرادتك خاضع طائع.
- لا حاجة بي يا صديقي إلى سرد تاريخ حياتي من بدئها، فإنك تعلم كيف نشأت، وكيف دفعني حب المجازفة والمخاطرة إلى التجول سنوات عديدة في بر الأناضول وجبال أرمينيا والقفقاس. وتعلم أيضًا أن رحلاتي تلك أوحت إلي باختيار مهنة يفشل فيها الخامل الجبان، ويفوز الجسور الشجاع، وأعني بها تجارة الرقيق.

مرت علي أيام سود، ذقت فيها الأمرين، وعانيت من المصاعب

والمشقات ما يعجز الكلام عن وصفه. لكني قاومت مقاومة الأبطال، وجاهدت جهاد المستميت، فتغلبت على ما اعترضني من عراقيل وعقبات، وفزت بالجاه والثروة، ورأيت النعم والأموال والألقاب تتدفق علي من كل فج وصوب، وأصبحت أفرام باشا الذي عرفته بالأمس، الرجل المتمتع بجميع ما يحلم به إنسان من ملذات، والذي تراه الآن أمامك خائر القوي، ضعيف الإرادة ذليل النفس، يبكي بكاء الأطفال.

أراك تسألني عما بدا؟ ولماذا أصبح أفرام باشا اليوم غير الرجل الذي عرفه الناس بالأمس؟ فاعلم يا صديقي أنني لا أقوى على احتمال ما ينزله طاغية تركيا بنا من مصائب وويلات. أجل، لا أحتمل ذلك، ولا أرضى بأن تمحق تركيا التي عرفناها وورثناها عن آبائنا وأجدادنا من الوجود، لتقوم على أنقاضها تركيا أخرى، بمدينة جديدة، وشرائع جديدة، وقوانين جديدة! لست يا صديقي من رجال السياسة، لكنني سأدافع عن تقاليدنا التي يحاول مصطفى كمال القضاء عليها.

لقد ثار ثائري عندما نادى الطاغية بتحريم تعدد الزوجات والانقطاع إلى امرأة واحدة دون سواها من بنات جنسها، لأنني رأيت في ذلك تعرضًا للحرية الشخصية، وانتهاكًا للشرائع الدينية والمدنية، وخروجًا على التقاليد المرعية عندنا. وهذا هو سبب حزني وكآبتي. أريد أن أدافع عن العرف والتقاليد، لكنني ضعيف الحول وخصمي قوي منيع الجانب. ثم إنني أرى الشعب كله سائرًا تحت لواء ذلك المبشر بمذهب جديد وبمدنية جديدة. ولا شك في أنه سيكون الغالب المنتصر، فما العمل الآن؟ لا يسعني أن أهجر نسائي ولم يبقَ لي ما أرجوه من تجارتي ومزاولة

مهنتي! ماذا تنفع النخاسة وماذا ينفع الرقيق في بلاد لا يقتنيرجالها أكثر من امرأة واحدة؟ نعم، لقد أفل نجمي، وقضى مصطفى كمال على آمالي وأماني في هذه الحياة.

وعاد أفرام باشا إلى البكاء والنحيب، فأدخله صديقه أحمد أغا إلى القصر وودعه وانصرف، ولسان حاله يقول:

– إن من يحاول إقناع المجانين بخطئهم يكون مجنونًا مثلهم.

***

ظل أفرام باشا يندب حظه، ويأسف لما وصلت إليه تركيا في عهد مصطفى كمال، ويفكر في القرار الذي ينبغي عليه اتخاذه إزاء هذه الحالة التي لم يكن ليطيق عليها صبرًا.

فاكتنفته الهواجس، وساورته الشجون، وجاشت في صدره ذكريات الماضي، فجعل يستعرض حياته، وأيامًا خلت كان فيها يجوب البلاد طولًا وعرضًا، وفي ركابه العشرات بل المئات من الخدم والعبيد، فيهبط المدن والقرى، ويتوغل في الجبال والمزارع، ثم يعود إلى الأستانة بما اقتنصه من ظبيات حسان، فيختار لنفسه ولأعز عملائه أبرع قنائصه جمالًا وأفتكهن لحظًا، ويطرح الباقيات في سوق النخاسة، فيتهافت القوم عليهن، ويحصل كل منهم على جارية ممشوقة القوام أو بضة الجسم، حسب رغبته ومشيئته، مقابل ما تساويه تلك النفس البشرية المسكينة من قطع ذهبية، يوردها الوسطاء إلى خزائن النخاس الأكبر أفرام باشا.

رأى الرجل نفسه في حضرة السلطان عبد الحميد، وقد ساق إليه حسانه، فاختار منهن السلطان طفلة باكية، وفتاة فتانة، وعذراء انتزعها زبانية النخاس من خدرها. وعرضت السلع الباقية على رجال القصر فدفعوا ثمنها بكرم وسخاء، ثم عاد أفرام إلى قصوره، واستعرض عبيده وجواريه وسراريه الخمسمئة، وتنقل في أملاكه الشاسعة، المبعثرة هنا وهناك، من الأستانة إلى أزمير إلى أنقره إلى أريفان.

وتكرم على كل من زوجاته الست والثلاثين بكلمة تلطف، وبقضاء يوم وليلة في خدرها، ثم شد رحاله من جديد إلى الصيد والقنص.

***

مر الحلم، وعاد الرجل إلى مواجهة الحقيقة، فضاق صدره وقال في نفسه:

- لا أجد منفذًا للخروج من هذا المأزق الذي زجني فيه الطاغية، ولن أسمح لأحد بعدي بأن يتمتع بما تمتعت به، فلابد من الاستشهاد في سبيل الواجب، في سبيل المهنة التي عشت منها ومن أجلها. أما الجواري فليذهبن حيث شئن، وأما الزوجات فسأخذهن معي إلى العالم الآخر.

وجمع النخاس نساءه الست والثلاثين، في ذلك القصر الجميل الذي وجده فيه صديقه أحمد أغا الشركسي، وخاطبهن قائلًا:

- لقد عزمت على إحياء ليلة فرح وطرب، جامعة لكل أسباب

الملذات والمسرات، لم يذكر التاريخ وليمة مثلها، فالبسن أجمل ما تملكن من ثياب، وتحلين بأثمن ما عندكن من مجوهرات، فقد أحرزت اليوم نصرًا مبينًا على خصومي، وقهرت أعدائي ونلت مناي.

***

جلس أفرام باشا إلى المائدة، وجلست زوجاته حواليه محيطة به إحاطة السوار بالمعصم، فأكلن وشربن ورقصن وأنشدن الأناشيد والأهازيج. وبعد أن لعبت الخمرة في الرؤوس، نهض الرجل وقال:

- لقد أعددت لكن مفاجآت لم تحلمن بها قبل اليوم، سأدخل هذه الغرفة، وأنادي كلًا منكن بمفردها، وأقدم لها الهدية الثمينة التي خصصتها بها.

ففرحت النساء وهللن، ودخل أفرام باشا تلك الغرفة التي أعد فيها الجواهر والحلي، ووضع بجانب كل هدية كأسًا صب فيها سمًا زعافًا، ونادى نساءه الواحدة بعد الأخرى. كانت المسكينة تخطو عتبة ذلك القبر الوهاج بما ترسله الجواهر من لمعان وبروق، وهي ضاحكة فرحة، فتتقبل من سيدها هديته، وتشرب الكأس في صحته، وتخرج من باب آخر بإشارة من الرجل. وهناك في قاعة أخرى، كانت تجد من سبقها من الزوجات التعسات، يتقلبن على الأرض، وقد سار السم الناقع في دمائهن، ومشى في عروقهن، وتغلغل في أجسامهن.

ولما أهدى أفرام باشا هديته الأخيرة، دخل القاعة التي أعدها مدفنًا له ولزوجاته، وهناك على نغم الزفرات والتأوهات التي كانت تصعدها

صدور ضحاياه، هم بشرب الكأس التي احتفظ بها لنفسه، مواجهًا الموت بقدم ثابتة.

لكن فكرة شيطانية تولدت في رأسه، وهي الأخيرة:

- يجب أن أتأكد من موتكن جميعًا قبل أن أسقط على الأرض بلا حراك!

واستل أفرام خنجره، واقترب من زوجاته واحدة واحدة، وطعن كلًا منهن طعنة نجلاء في قلبها، تأكد منها أن المرأة لن تعود إلى الحياة.

ثم شرب الكأس واستقلى بجانب أحبهن إليه، وبعد أن وضع على جبينها قبلة حارة، خاطب تلك الجثة الهامدة قائلًا:

- لقد خدعتكن، ولكنني فعلت ذلك في سبيل تقاليد مجتمعنا التي اجتاحها الخونة الأشرار، فإلى اللقاء أيتها الزوجات الصالحات، من تركيات وشركسيات وأرمنيات وكرجيات. سقيتكن السم بضمير مرتاح ونفس راضية، وطعنتكن بيد لم ترتجف قط. فإلى اللقاء الآن، في جنة النعيم التي لن يلج بابها من يلقبون أنفسهم بالمصلحين. لقد وفيت ديني نحو بلادي ومذهبي ومعتقدي وتقاليدي، فإلى اللقاء، إلى اللقاء!

وبذلك الخنجر الذي خضبه بدماء ست وثلاثين زوجة، طعن أفرام باشا نفسه في قلبه، فسقط على جثة أحب نسائه إليه، وفاضت روحه في الحال.

بلغ أحمد أغا الشركسي خبر جريمة صديقه الشنعاء، فأسرع إلى مكان الحادثة مع من أسرع إليه من رجال السلطة. ولما علم بما حدث، هز رأسه وقال:

- هذا ما كنت أنتظر، لقد ربح الرجل ثروة من المتاجرة بالنهود والنحور، وقضى حياته بين النهود والنحور، وفاضت أنفاسه بين النهود والنحور.

الفهرس